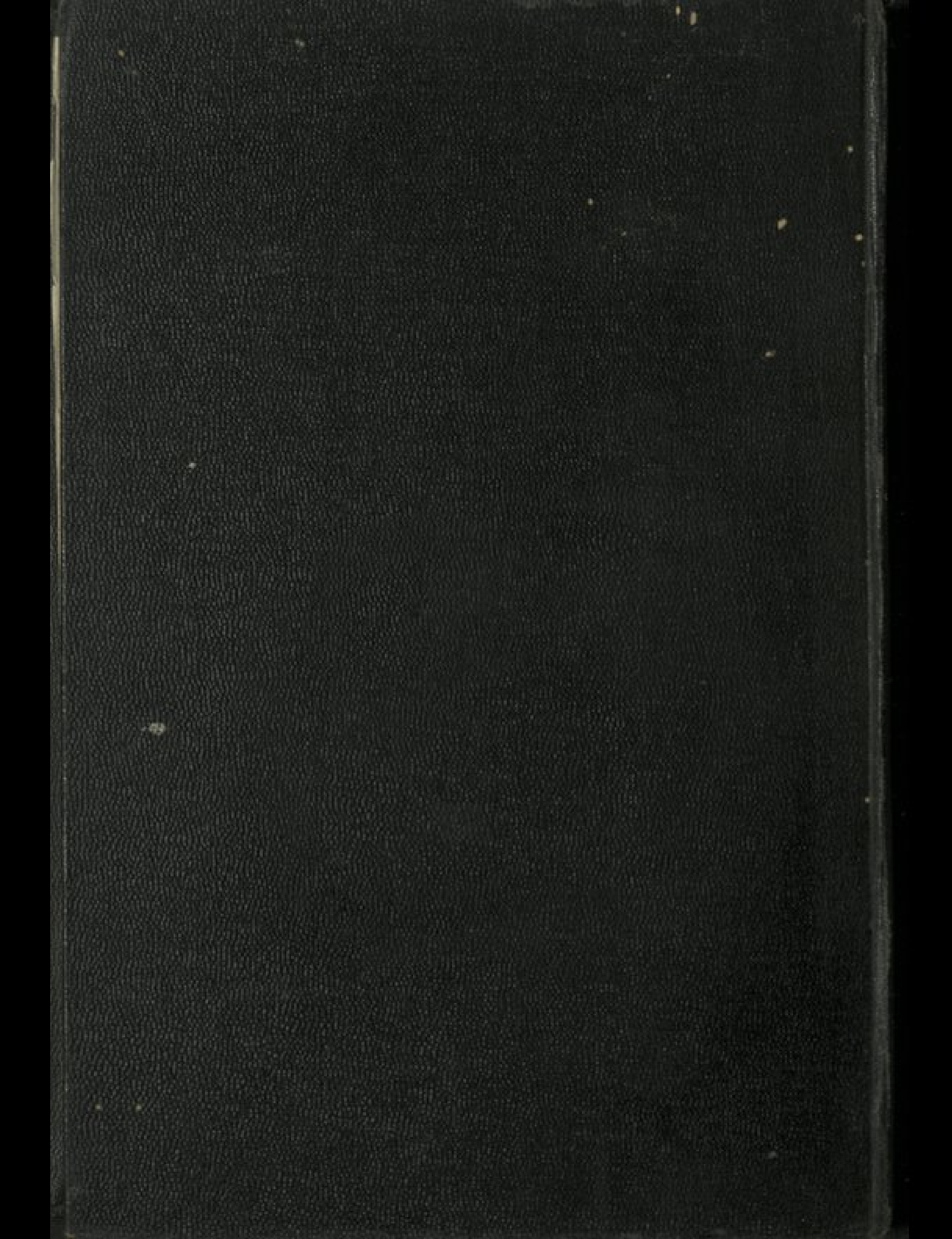


923.8
S532sA
c.1

من حي الى ميت

الى اخي

كتبها المؤلف الى روح المرحوم اخيه طانيوس المنتقل الى رحمته تعالى في عاصمة المكسيك نهار الخميس الواقع في ٦ حزيران سنة ١٩٢٩ الساعة الاولى والدقيقة الخامسة بعد الظهر .

57205

بقلم
توفيق حسن نادر الشرتوني

يا اخي

اخاطبك الان مبتدئاً بهذه الكلمة التي كتبتها على بطاقة نعيك ووضعتها في تابوتك ضمن زجاجة مختومة .

والدك الحزين واخوك المقصوص الجناح وعقيلة اخيك وشقيقتاك وولدي رفيق وسلوى كلهم يستمطرون على ضريحك الرحمة والرضوان ويحملون في قلوبهم اسمك الطاهر المقرون بالعفة والوداعة ورقة الشعور .

فسلام الله عليك وعلى الوالدة التي طوتها الارض كما طوتك الآن شاباً في ميعان الشباب وزهوة العمر .

مكسيكو في ٦ حزيران سنة ١٩٢٩

اخوك الحزين
نوفل



رسم المؤلف

توفيق حسن نادر الشرتوني



رسم المرحوم

طانيوس حسن نادر الشرتوني

وهو في الحادية عشرة من عمره



آخر رسم للمرحوم

طانيوس حسن نادر الشرتوني

وهو في الثامنة والعشرين من العمر

حياة المرحوم اخي

طانيوس حسن نادر الشرتوني

مولده وحداثته

• ابصر المرحوم اخي طانيوس النور في مدينـة ليوبولدينا من اعمال ولاية ميناس التابعة لجمهورية البرازيل في الساعة السابعة من صباح الثلاثا الواقع في اليوم السابع من شهر آب سنة ١٩٠٠

وقد اخبرني ابي بان الوالدة مرضت مرضاً عضالاً حينما كانت حاملاً به ولم تحصل على الشفاء التام الا بعد ولادته وربما كان هذا المرض قد أثر على مستقبل صحته .

وفي السنة الثالثة من عمره جيء به من البرازيل الى لبنان برفقة والديه وعاش في البيت الابوي في مسقط رأسنا شرتون البلدة الواقعة في الجرد الجنوبي من قضاء الشوف .

كان رحمه الله العزيز الغالي على والديه وشقيقه وشقيقتيه لانه صغير العيلة وكنارها المغرد وحسونها الجميل .

في المدرسة

دخل مدرسة القرية في السنة السابعة من عمره ولم ازل اذكر ان الوالدة كانت تأخذه اليها بنفسها كل يوم وكثيراً ما حملته لفرط حبها له .

وقد تعلم اصول القراءة والكتابة بسرعة فائقة واحبَّ المدرسة حباً جماً حتى انه لم يبرحها بلا سبب يوماً واحداً .

حينما بلغ الحادية عشر من عمره مرض بالحمى « التيفوس » فاشتدت وطأتها عليه واوشكت ان تودي بحياته ولكنه عُوفي منها بعد عناء طويل وعادت اليه صحته .

في عامه الثاني عشر دخل مدرسة الحكمة المارونية واظهر رغبةً عظيمة في تحصيل العلم واجتهاداً خارقاً في مثابرته على دروسه وذكاء وقاداً وقوةً كبرى في حافظته .

ولكنه لسوء الحظ لم يقم في مدرسة الحكمة الا سنتين وبعض اشهر لاستعار الحرب الكونية واقفال ابواب المدرسة في وجه طلأبها .

ترك المدرسة مرغماً في اواخر سنة ١٩١٤ وعاد الى شرتون . ولشدة رغبته في العلم كان احياناً يؤم الصرح البطريركي

الكاثوليكي في عين تراز ليدرس على بعض الرهبان الافاضل ويتعلم منهم ويمارس معهم التكلم باللغة الافرنسية .

اقام مدة الحرب الكونية في البيت الابوي وبئس الذكرى ذكرى تلك الحرب المشؤومة التي كانت وبالاً على لبنان وعلى الانسانية جمعاء.

ولقد اخبرني احد الثقات بان اخي كان في ذلك الحين رغماً من صغره يحنو على الفقراء ويؤاتيهم . كان يذهب بنفسه ويحمل قطعة من الخبز وصحفة من الحساء لجارة انهكها المرض والجوع واقعداها عن العمل .

وحدثتني احدى النسيبات ايضاً وهي لم تزل في قيد الحياة وقد عضّها الجوع بنابه في ايام الحرب بان اخي كان دائماً يزوّدها ببعض الاغذية لأولادها ويعطيها كل ما تطلب منه .

توجه الى المكسيك

عند انتهاء الحرب العالمية كتب إليّ الى المكسيك بانه يود السفر الى حيث انا نازل او الرجوع الى المدرسة . فأجبته مشيراً عليه بان يعود لاتمام دروسه ثم خيّرته بين طلب العلم او السفر .

فاجابني مؤثراً السفر وهذا ما قاله في احدى رسائله :

ياخي : لا ارى بعد هـذا السن من مسوّغ للعودة الى المدرسة لان موعد النزول الى ساحة العالم قـد حان والعالم هو المدرسة الكبرى لمن بلغوا سني وفضلاً عن ذلك كن على ثقة باني سأساعدك في اشغـالك مساعدة فعالة واتعلم منك ومن الناس الذين اعاشرهم ما ينقصني من العلم . هذه هي مقاصدي سأقوم بها ان شاء المولى الكريم .

وقد قام بها فعلاً خير قيام رحمه الله .

في منتصف شهر آب من سـنة ١٩١٩ غادر اخي لبنان قاصداً المكسيك مرافقاً لابن العم داود سليم الشرتوني .

وصل الى العاصمة مكسيكو . في اواخر شهر ايلول من تلك السنة وكان عمره وقتئذٍ تسع عشرة سنة . واما يوم التقائي به فكان ابهج يوم عرفته في حياتي كما ان يوم وفاته كان اشأم ايام عمري .

حياته التجارية

شرع منذ وصوله يشتغل معي في محلنا التجـاري . ولم يمضِ عليه شهر واحد حتى اصبح يجيد التكلم باللغة الاسبانية

ويعرف البضائع الكثيرة المختلفة الانواع والاشكال باسمائها واسعارها فجعلته شريك النصف معي فوراً دون ان ادقق في اختباره لاني لم ارَ حاجةً الى ذلك بحيث وجدته من افضل الرجال سيرة وسريرة ومن انقاهم يداً واعفّهم لساناً ومن اكثرهم ثباتاً في العمل وارجحهم في العقل وحسن التدبير .

وفاة الوالدة في الوطن وشدة التياعه عليها

في اوائل اذار من سنة ١٩٢٣ تلقينا عن الوطن كتاباً من الوالد الجليل ينعي الينا والدتنا الحنون التي اخترمتها المنية في ٨ شباط من تلك السنة المشؤومة . فوقع خبر وفاتها علينا وقع الصاعقة خصوصاً على اخي الذي كان يحب امه حباً يقرب من العبادة ولا ازال اذكر انه مرض مرضاً شديداً من جرّاء فقدها وشدة حزنه عليها . زد على ذلك بقي كل حياته بعدها يردد هذه العبارة : « لقد ودّعت صفو العيش بعدك يا اماه »

عودتي الى الوطن واظهار مقدرته ونبوغه

في الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٣ غادرت المكسيك قاصداً لبنان اجابة لطلب الوالد الحنون . فودعت اخي بعد ان القيت على عاتقه مقاليد الاشغال كلها.

فاخذ يُدير بنفسه محلنا التجاري ومعاملنا الواسعة التي كانت تحوي ما يزيد على مائة وخمسين عاملاً بدقة ونظام عجيب مع كونه في ذلك الحين كان لم يتجاوز بعد الثالثة والعشرين ربيعاً.

فشهد له المواطنون والاجانب بطول الباع في الادارة وحدة الذكاء والثبات النادر في تسيير الاشغال التجارية على احسن ما يرام حتى اصبح ممدوحاً بكل شفة ولسان ومعدوداً من اقدر رجال الاعمال واحسنهم تدبيراً بالنسبة الى صغر سنه واقتداره .

رجوعي الى المكسيك مصحوباً بعيلتي

في اوائل نيسان من سنة ١٩٢٨ تلقيت كتاباً من النسيب خليل اسعد نادر الذي كان مستخدماً في محلنا التجاري يلح عليّ بالعودة الى المكسيك لان اخي معتل الصحة لا يستطيع القيام باعباء اشغالنا . ثم استلمت تحريراً من اخي ينبئني بان الاطباء الذين فحصوه مدققاً اتفقت كلمتهم على شفائه قريباً .

واما انا فلم يعد يهنأ لي عيش في بيروت فودعت الوالد الحنون وابحرت الى المكسيك في ١٦ نيسان سنة ١٩٢٨ مصحوباً بعقيلتي وولدنا رفيق الذي كان عمره حين ذاك سبعة

اشهر لا غير .

وصلنا الى مكسيكو في سبعة حزيران من السنة المذكورة وكان استقبال اخي لنا استقبالاً حافلاً وسروره بالتقائه بنا عظيماً للغاية . واما فرحه بولدنا رفيق كان لا يحد ولا يوصف وهكذا كانت محبته له ولشقيقته سلوى التي ولدت في مكسيكو . كان رحمه الله يعطف عليهما كثيراً ويرمقهما دائماً بحنانه . وقد جاء على ذكرهما مراراً في ساعته الاخيرة .

بعد بضعة ايام من وصولنا ذهبت واياه نستشير بعض نطس الاطباء عن صحته . وبعد ان فحصوه فحصاً مدققاً ارتأوا ان يذهب الى بلدة توا كان من اعمال ولاية بدابلا لاجل تغيير الهواء والتماس الراحة التامة من عناء الاشغال فذهب حالاً مصحوباً بصديقه الحبيب ابن خالته عزيز . وبقي هناك شهراً كاملاً ثم عاد الى العاصمة متمتعاً بالصحة التامة .

مرضه الاخير — وفاته

في غرة شهر حزيران سنة ١٩٢٩ شعر اخي برشح بسيط فاعطاه طبيب العيلة مسهلاً وفي اليوم الثاني نزل الى المحل التجاري وقضى طيلة نهاره يشتغل فرحاً مسروراً لا يعلم ماذا

تخبي ُ له الاقدار. لانه اصبح في اليوم الثالث من شهر حزيران محموماً . فجاء حالاً طبيب العيلة وبعد ان فحصه اشار علينا بوضع ممرضة له ثم قال بان مرضه بسيط جداً وسيشفى قبل انتهاء الاسبوع .

وفي منتصف ليلة خامس حزيران طلبني الى سريره فذهبت اليه ثم تبعني الطبيب وبعض الاقارب الذين جاؤوا للسؤال عنه ولتضمية السهرة عندنا . فجلس في فراشه واخذ يودّعني ويودّع الحاضرين قائلاً لي : ان قوة الهية اوحت اليه بانه غداً يموت مع كونه كان يتقدم الى الصحة فاخذنا نمازحه ولم نعبأ بكلامه

وفي اليوم الثاني اعني في ٦ حزيران دهته نوبة قلبية اودت بحياته فقضى مبكياً على شبابه وحميد خلاله ليس فقط من اهله وذويه بل من كل من عرفه وسمع به .

وفي اليوم السابع من شهر حزيران سير بنعشه الى المدفن الافرنسي باحتفال مهيب مشت وراءه الجالية اللبنانية السورية باسرها وشيّعه جمهور غفير من المكسيكيين و كبار رجال الاعمال الاجانب .

صفاته ورجاحة عقله وحبه للعلم .

كان رحمه الله رحمة واسعة صادقاً ابي النفس حراً عفيفاً طاهر الذيل لم يسيء الى احد في حياته .

وكان ذا عقل راجح وافكار سامية ومبادئ قويمة .

وكان يحب العلم محبة عظيمة ولو امدّ الله بعمره لترك التجارة وانصرف بكليته لاقتباسه لانه صرّح لي بهذا مراراً وكان يقول دائماً بان افضل الناس العلماء لانهم يضحون بنفوسهم لفائدة سواهم واما رجال المال فلا يضحون من اجل الناس بشيء مذكور بالنسبة الى اولئك .

اسكنه الله فسيح جنانه والهمنا من بعده الصبر الجميل .

نوفيق حسن نادر الشرتوني



الرسالة الاولى

بيروت ٢٥ آذار سنة ١٩٣٠

ياجناحي الوحيد

يا اخي

منذ تسعة اشهر اخترمتك المنون يا اخي وحتى الآن لم اقدر ان اكتب كلمة واحدة في رثائك .

ان الحزن الشديد الذي استحوذ عليّ من جراء فقدك قد اجهز على دماغي وجعله مشتتاً لا يقوى على التعبير عن شدة انفعالي وتأثري لموتك .

ياجناحي الوحيد : كنت اؤمل انك ترافقني في الحياة وتغمض جفني عند الممات وتكون عضداً لولدي لما بيني وبينك من تفاوت في السن ولكن الموت الذي لا يرحم كبيراً ولا صغيراً قد قصف جناحي ودك معالم آمالي واحلامي .

ان دمعي الذي ينهمر عفواً عند ذكراك لهو ابلغ من قلمي

في التعبير عن آلامي الجسدية وجناني الذي يختلج اختلاجاً عند التأمل بك لهو افصح من لساني في وصف هواجسي النفسانية.

يا اخي : يتجدد شجني كلما فكرت بأن الطبيعة كانت قاسية عليك لانها اردتك قبل ان يحمل ورد شبابك زهراً وغصن حياتك ثمراً.

ان حكمها وايم الحق هو حكم القوة على الضعف — حكمٌ يشمل في هذا الكون كل ذي حياة .

الى اللقاء يا اخي — الى حيث تتجدد الارواح والاجساد .

الرسالة الثانية

بيروت في ٣٠ اذار سنة ١٩٣٠

اين انت يا اخي

في صباحي ومسائي اسألك يا اخي اين انت ؟

سؤالٌ مبتذلٌ وجهه قبلي ملايين من الاحياء الى ملايين من الاموات ولم يجابوا .

لعمري يستحيل علينا نحن الاحياء مخاطبة الاموات لاننا نجهل سر الموت .

واما انتم ايها المنتقلون الى رحمة الله الذين امتحنوا الحياتين وعرفوا الدارين لماذا لا ترشدونا الى داركم ولا ترسموا لنا سبل مناجاتكم و كيفية الوصول الى مخاطبتكم ؟

الا تحنون الينا كما نحن اليكم ؟

يا اخي : لا اسألك الآن عن جثمانك لأني اعلم انه عاد الى التراب الذي جُبل منه . ولكني اطلب منك علماً اين هو ذلك الوجدان الذي كان يحوي رجاحة عقلك وسلامة ضميرك ؟

واين هي تلك الشواعر الرقيقة التي كانت ترافقك في حياتك ؟

وبكلمة وجيزة اين هو ذلك الجوهر الذي كان ينير ذهنك ويقودك الى الصراط القويم ؟

ان جوهرك لم يمت يا اخي . فكما كنت حياً في الجوهر قبل ان ولدتك امك هكذا انت لم تزل حياً بعد موتك .

ولكني لا ادري اين انت

يا اخي : اذا لم تشأ مخاطبتي وانا مستملكٌ حواسي زرني في الليل ساعة رقادي وا كشف لي عن جوهر ذاتك وعلمني كيف اناجيك .

انزع ان استطعت هذا الحائط الكثيف القائم سداً منيعاً بين عالمك وعالمي ثم تجلَّ عليَّ بروحك وهبني معرفة الآخرة وحقيقة الحياة بعد الموت .

اشرف لحظةً من كوة سمائك وقل لي على الاقل اين انت.

الرسالة الثالثة

بيروت في ٥ نيسان سنة ١٩٣٠

على فراش الموت

يا اخي :

ان قلبك الذي كان متغلباً على كل مصاعب الحياة ومساوئها عجز عن مغالبة الداء الذي تغلغل في احشائك واستولى في مدة وجيزة على اسوار حياتك .

جاءك الموت على غرّة وانتزعك انتزاعاً من احضان اخيك

لأن الداء الذي انتابك لم يمهلك الا ثلاثة ايام . وقد ظنه الاطباء عارضاً بسيطاً فكان قاتلاً .

انه لعمري كان داءً خفياً . والاطباء في الامراض الخفية يخبطون خبط عشواء . فكم مرة يداوون الكبد والداء في المفاصل ويعالجون الرئة والداء في القلب .

ولهذا السبب لا ادري هل استعجل موتك الطبيب في سؤ طبابته او الضربة كانت قاضية عليك .

يا اخي : في ابان مرضك لم تظهر ضعفاً ولا انتهاكاً ولهذا السبب لم يدر في خلدي قط انك على خطر . واما انت فكنت عارفاً مصيرك لانك ودعتني في مسائك الاخير وفهت امامي بكلمات خالدات سأدوّنها لذكراك في تحاريري الآتية .

اعذرني يا اخي حيث لم اعر وداعك انتباهاً لاني حسبته وداع خائف على نفسه لا وداع رجل متثبت من حقيقة امره .

يا اخي : اتمثلك دائماً على فراش الموت — اتمثل شبابك الذاوي الذي كان مثالاً للجد والنشاط والحركة الدائمة كيف اصبح من جراء الموت معدماً خامداً .

انا متعطش لمرآك ولاستماع صوتك العذب . افتش عنك في كل مكان ولكن بلا جدوى واسأل هذه الطبيعة الجائرة اين

انتثرت ذرات جسدك ؟

تلك الذرات الحية التي كان مجموعها انت .

اين ذهبت تلك الجواهر التي لا يقوى الموت على ابادتها ؟

هل اتخذ النسيم والماء العذب بعضها؟ وتوزع البعض الآخر بين الازهار والاثمار والنبات .

فاذا كان الامر هكذا فانت اذن يا اخي في النسيم والماء وفي الزهر والثمر وفي كل مكان .

ان برد النسيم يحضن برد قلبك وصفاء الماء يحمل صفاء ذهنك وجمال الازهار تنشر جمال خَلقك وخُلقك وشذا الرياحين تعلن شذا اخلاقك وطيب ادبك ولذة الاثمار تحوي طلاوة معشرك ولذة حديثك.

لقد غيّبك الموت عني يا أخي ولكني دائماً اتخيلك امامي في كل شيء حسنٍ وفي كل مكانٍ جميل .



الرسالة الرابعة

بيروت ١٥ نيسان سنة ١٩٣٠

الليلة الاخيرة

يا اخي:

لا انسى ما حييت ساعة شاهدتك في مسائك الاخير متكئاً على فراشك وبين يديك رسم الابوين متذكراً طفولتك وايام صبوتك حين كنت ترتع هنيئاً في البيت الابوي بين احضان والديك.

في تلك الساعة كان تنهدك عميقاً وكنت تارةً تضع الرسم على فمك وتقبّله بشوق وحنان زائدين وطوراً تحدق به متأملاً ومستنزفاً كل ما في جنانك من وجدٍ وانعطاف نحو من كانا سبب وجودك.

في تلك الليلة كان الطبيب بقربك يؤاسيك والممرضة تنفحك بعنايتها وعقيلة اخيك ازاءك ترمقك بحنوها وانعطافها

واخوك بجانبك يشدّد عزمك ويملأ قلبك ثقةً بالحياة .

في تلك الساعة حولت فجأةً نظرك اليّ وخاطبتني والرسم بين يديك قائلاً :

اذهب يا اخي الى ابيك واما انا فغداً اذهب الى احضان امي التي جاورت ربها منذ سبع سنوات .

ان قوة الهية وهبتني معرفة مصيري .

لا اخاف الموت — ان الموت حياة .

يا اخي قلت لي مراراً انك لم تنظر احداً عن كثب يتخبّط في دور نزاعه قم الآن وشاهد نزاع اخيك .

مثّل للناس كيف ترهق الروح ويتلاشى النفس .

اكتب يا توفيق لقد خُلقت للكتابة .

صوّر نفسك تصويراً صحيحاً .

دوّن افكارك وسجل خواطرك وكل ما يكنه فؤادك من علم وادب وفن .

ارسم اخلاقك ومبادئك ولا تترك في صدرك شيئاً مكتوماً .

فاذا جاءك هادم اللذات فلا يهدم الا جثمانك واما وجدانك فيبقى مخلداً في صفحات الكتب يقرؤه الناس

الى ما شاء الله .

واما انا فقد انتصر الموت على عواطفي وافكاري كما انتصر على جثماني لاني تركت معارفي مكتومةً في طيات دماغي وشواعري مخبوءةً في حنايا صدري .

يا اخي لم اعش طويلاً ولكني عشت شريفاً .

لم اعمل في حياتي عملاً معيباً تستحي منه .

قد حرمتني الطبيعة لذة الحياة الدنيا ولكنها لم تقدر على حرماني تلك اللذة الروحية التي رافقتني طيلة عمري ولم تزل ترافقني حتى الآن رغماً من شدة آلامي ووقوفي على باب القبر .

وصيتي اليك بأن تأخذ رفاتي الى الوطن وتضعها في لحد امي .

والآن اودعك الوداع الاخير واطلب منك الا تحزن على فقدي .

الوداع يا أبي الحنون ويا عزيزتي اغنس (١) ويا حبيبيّ رفيق وسلوى (٢) .

الوداع يا شقيقتيّ العزيزتين

الوداع يا وطني يا مثوى الاباء والجدود

---

(١) اغنس هي عقيلتي . (٢) رفيق وسلوى هما ولدانا

الوداع يا اخي .

هذا كان حديثك الاخير دوّنته لك حرفياً ليقرأهُ الناس ويترحمون عليك وليعلم اولادي ولو شيئاً يسيراً عن مقدار شخصيتك البارزة واخلاقك النبيلة .

الرسالة الخامسة

بيروت في ٢٠ نيسان سنة ١٩٣٠

يا اخي اذهب الى ابيك ودعني اذهب
الى احضان امي

يا اخي

هذه هي العبارة الاولى التي كلمتني بها حينما شعرت بدنو الاجل . كأنك تريد ان توصيني بالعود سريعاً الى احضان والدنا الشيخ الذي لم يعد له من نصير غيري في هذه الحياة .

كن على ثقة اني قمت بوصيتك خير قيام حيث لم امكث

في المكسيك بعد وفاتك سوى برهة وجيزة صرفت في خلالها اشغالي التجارية بسرعة البرق . ولم اعبأ في الخسائر الباهظة التي لحقتني من جرّاء ذلك .

عدت وعيلتي الى الوطن حالاً وشاهدت الوالد الحنون منطرحاً على فراشه من هول الخطب الذي المّ به .

رأيته مثقلاً بالهموم والهواجس حاملاً على منكبيه ثلاثة اعباء : عبء فقدك — وعبء الداء وعبء الشيخوخة .

ومذ اكتحلت عينه بعيني بادرني فوراً بالسؤال عنك وعن مرضك الاخير . فعرفتك اليه تعريفاً صحيحاً معرباً له كيف عشت في بلاد المهجر شاباً كاملاً في خَلقك وخُلقك وفي صدقك ورجاحة عقلك . واخبرته عن شجاعتك النادرة التي ابديتها في ابان مرضك وعن جرأتك الخالصة التي اظهرتها في استقبال الموت .

فعندئذٍ انتفض من ساعته وقال : نعم مات ولدي ولكنه عاش رجلاً ومات رجلا .

ثم التفت اليّ والدمع ملء وجنتيه وخاطبني بصوت اجشّ : اشكر الله على سلامتك وسلامة عيلتك يا بنيّ واكرر الشكر اليه تعالى لانه ترك لي عيناً انظر بها .

ثم قبَّلني وقبّل عقيلتي وولديّ بلهفة زائدة .

يا اخي : كنت مصيباً حينما اوصيتني بالعود سريعاً الى احضان الوالد الحنون لان جمرة الحزن التي وقعت على قلبه الابوي من جرّاء وفاتك لم يخمدها غير حضوري.

ان ولديّ رفيق وسلوى هما كانا بلسم جراحه ومورد سلوانه وصبره .

يا اخي:قلت لي انك ذاهب الى احضان امك– هل التقيتما في عالم الابدية وضمتك الوالدة الى صدرها فرحة في لقائك كما كانت تضمك في هذه الحياة ؟

هل تصافحت روحك وروحها ؟

هل تحدثتما عنا وافتكرتما بنا كما نتحدث دائماً عنكما ونفتكر بكما ؟

او انك لم تزل جاداً وراءها تتفقدها في عالم الاثير ولم تصل حتى الان الى مقرها .

او ان الموت فتقَ لك علماً جديداً موحياً اليك ان الابوّة والامومة تنحصران في الاجساد وحدها واما الارواح فلا امومة ولا ابوّة لها .

فاذا كان الامر هكذا فلا امل لك بلقاء امك لان

جسديكما اللذين كانا يمثلان الامومة والبنوة قد بليا واصبحا اثراً بعد عين .

يا اخي : اعذرني لاني لا اكتب عن عالم الموت سوى ما اتخيله واحلم به لا ما يقرره العلم الذي لم يزل عاجزاً عن معرفة ما وراء القبر .

ولهذا السبب اكرر رجائي اليك طالباً منك ان تفتح مغالق الموت وتجعل منه للناس علماً صحيحاً

شق كبد الفضاء واظهر بروحك حاملاً مشعال الحقيقة الناصعة

اما حان الوقت ان تسقط الكهانة ويتلاشى الضلال



الرسالة السادسة

بيروت في ٢٥ نيسان سنة ١٩٣٠

ان قوة الهية وهبتني معرفة مصيري

يا اخي :

لم يزل صوتك يرن في اذني حينما خاطبتني بايمان راسخ قائلاً لي ان قوة من العلاء هبطت عليك واولتك معرفة مصيرك.

والان جئت اسألك ما هي تلك القوة الخفية التي احتلت وجدانك وقصفت زهرة شبابك .

ما سبب مجيئها في تلك الساعة الاليمة ؟

هل ارسلها المبدع خصوصاً لتفتح امامك طريق الموت وترشدك الى باب الخلد .

او ان تلك القوة التي شعرت بها هي حياة جديدة دبت فيك وقضت على حياتك الماضية واحتلت اماكنها كما يحتل الجيش المنتصر اماكن الجيش المنكسر .

يا اخي : ان الذرات الحية التي تتركب منها الاجساد على اختلاف انواعها نراها دائماً تعبث في مركباتها . تحييها مدة ثم تميتها ثم تعود الى احياء غيرها ثم تبيدها وهكذا دواليك .

وبما ان الجسم البشري مفعول من مفاعيل تلك الذرات البسيطة فلا قبل له سوى الخضوع لها والجري على نواميسها .

اني لمؤمن ايضاً ان حياة الكهارب لا تنتهي بانتهاء الاجساد بل تتحول من شكل الى شكل ولا تفنى ولو فني الكون وتفككت حلقات الطبيعة واصبحت هباء منثوراً .

فعندئذ يلوح لي ان هذه الكهارب الصغيرة تصطنع لنفسها كوناً جديداً او تحتل شهاباً اخر وتأخذ مجراها في عالم الحياة الى ما شاء الله .

يا اخي : يخال اليّ ان الحياة دائمة لا بدء لها ولا منتهى لأني ارى الاكوان جميعها تتركب من ذرات صغيرة تنبعث منها الحياة اشكالاً والواناً .

ان النور المنبعث من الشمس والارض وما عليها ليس هو بالحقيقة سوى حياة ولدها اتحاد الكهارب او الذرات والتصاق بعضها ببعض .

فكما ان الفنان يرسم الوان الحياة ومظاهر الطبيعة اشكالاً

والموسيقي الماهر يعزف على قيثارته من الانغام انواعاً والمخترع يصب في معمله من الآلات اجناساً هكذا الذرات الحية فهي خليقة ان تعمل في اتحادها من الشموس والكواكب انواعاً لا تعد وان توجد من ضروب الحياة اشكالاً لا تحصى .

انها لعمري تفعل في آن واحد فعل العازف والفنان والمخترع وتعمل عمل الكل لانها الكل بالكل .

الرسالة السابعة

بيروت في اول ايار سنة ١٩٣٠

لا اخاف الموت — ان الموت حياة

يا اخي :

ذكرت لي قبل وداعك الحياة انك لا تخاف الموت لان الموت حياة .

ومن يتعمق قليلاً في درس الطبيعة يرى كل الحق بيدك .

هذه سنابل القمح المكدسة على البيادر في ايام الحصاد لا تظهر للناظر اليها غير يبسها وعدم وجود ماء الحياة في عروقها ولكنها بالحقيقة لم تمت لان الحياة لم تزل كامنة في جوهر الحب الذي يعود متى حان الاوان الى تجديد انتعاشه واحياء نضارته.

وهكذا نحن البشر نموت لنحيا.

يا اخي : انا واثق انك بالحقيقة لم تمت بل خلعت ثوبك فقط واخفيت في ذاتك جوهر حياتك .

والان جاء الربيع وانتعشت الازهار بعد مواتها وقامت تجدد حياتها . أفلا تستيقظ من سباتك وتنتعش مثلها لتجديد حياتك .

او انك بالاحرى بُعثت منذ وفاتك ومُنحت عالماً جديداً افضل من عالمنا وحياة جديدة اشد بهجة واكثر كمالاً من حياتك التي فقدتها .

يا اخي : لا احد يعلم في هذا الكون من الفائز في معترك الحياة . هل البالغ الثمانين او المئة من العمر او المائت في عهد الطفولية واوائل الشباب !

واما انا فيلوح لي ان المسرع في عدوه يبلغ ضالة الحياة عاجلاً واما البطيء السير فلا يبلغها الا بعد عجز وعناء جزيل .

اني اتمثل الحياة كالماء تزداد في تجديدها صفاء وفي تكريرها نقاء .
والكمال وحده محجة الحياة والاتحاد بالمبدع نهاية سبيلها .

الرسالة الثامنة

بيروت في ٥ ايار سنة ١٩٣٠

يا توفيق انت لم تنظر احداً يتخبط في دور نزاعه
قم الان وشاهد نزاع اخيك .

يا اخي :

لقد خاطبتك مرة حين كنا نتحدث عن الموت اني لم اشاهد مرءاً محتضراً امامي . فتمثل ذلك الحديث امام ذهنك ساعة احتضارك وقت تردده على مسامعي بوضوح تام .

ان صوتك المتقطع الذي لفظت به هذه العبارة « يا توفيق انت لم تنظر احداً يتخبط في دور نزاعه قم الان وشاهد نزاع

اخيك » كان صوتاً روحانياً خرج من اعماق نفسك ليبلغ اعماق نفسي وهجر كيانك ليستقر بكياني ·

هو حي فيَّ اشعر به دائماً يهمس نبراته في ذهني وينفث زفراته في جناني ·

يا اخي : لم ازل حتى الان ارتجف ارتجافاً حين اتذكر ساعة فاجأتك النوبة القلبية ودعاني طبيب العائلة الى مخدعك وقال لي : ان اخاك بحالة الخطر ·

فنظرتك يائساً وهرولت مسرعاً الى الاطباء استنجدهم لينقذوك من غائلة الموت الذي اصبح على قيد باع منك ·

ثم عدت والاطباء وكان الموت ببضع ثوان سبقنا جميعاً ·

رأيتك ويا لهول ما رأيت · جثة هامدة لاحراك فيها · والاطباء حولك يتشاورون في سبب موتك ·

واما انا ففي بادىء الامر لم اصدق ما حل بك واخذت اناديك باعلى صوتي والتمس منك جواباً ولكن عبثاً حاولت ذلك لانك كنت رهين المنون

لم انظرك يا اخي ساعة احتضارك ولكن عقيلتي التي كانت تمسح عن جبينك عرق الشدة اخبرتني كيف اسلمت روحك كالبرق وانطفأ سراج حياتك كما تنطفىء الشمعة

في الهواء .

يا اخي : لم تظهر ألماً شديداً في ساعة نزاعك ولا وجلت امام الموت ولا تأوهت على خسران حياتك . مع اني اعهدك تحب الحياة حباً جماً وتحافظ على كيانك محافظة شديدة فكيف بك وقد اظهرت كرهاً للعيش وازدريت بدنياك وما فيها من جمال ومال دون ان تعتدّ بها .

كنت جميلاً في الموت بقدر ما كنت جميلاً في الحياة . وكان العواد جميعهم يرونك كالنائم نوماً هنيئاً لا كالفاقد الاجل .

نظرتك النظرة الاخيرة على باب القبر — هناك فتحت التابوت بيدي وقبلتك قبلة الوداع — وكان وجهك لم يزل جميلاً مع ان القضاء كان قد حلّ بك منذ اكثر من ثلاثين ساعة .

وضعك الحفارون في قبرك بعد ان اغلقوا تابوتك جيداً ثم ابتدأ المؤبنون يتسابقون على تأبينك معددين مناقبك وجميل سجاياك . وما ان انتهوا حتى اخذ الحفارون يهيلون التراب عليك وانا واقف بقرب رمسك ذاهل العقل مكسور القلب والجناح . وحولي جمع غفير من المشيعين الذين كانوا واقفين مثلي حاسري الرؤوس وخاشعين امام ضريحك .

اودعتك الثرى وعدت وجمهور المشيعين الى البيت .
ولكن فكري لم يعد معي بل بقي الليل بطوله يجول فوق
ضريحك ثم عاد اليّ في الصباح برهة ثم رجع الى مقرك . ولم
يزل حتى الان يذهب اليك ويعود اليَّ .

لقد اقمت فكري رسولاً بينك وبيني ولكنه لسؤ الحظ
رسولٌ خائب لا فائدة منه . ما زال يقرع بابك ولا تفتح له
ويناجيك ولا تناجيه ويستجيبك ولا تستجيبه :

الرسالة التاسعة

بيروت في ١٠ ايار سنة ١٩٣٠

اكتب يا توفيق لقد خُلقت للكتابة

يا اخي :

اخالك حين قلت لي قبل وداعك الحياة (اكتب يا توفيق
لقد خُلقت للكتابة) قد اردت ان تنشلني من عالم المادة الى عالم

الروح واحببت ان تحررني من رق التجارة وعبودية المال لأنك منذ قرأت كتابي «الحياة في لبنان» توسمت فيَّ التبريز في حلبة العلم وصناعة الادب . وقد اظهرت لي مراراً اعجابك في بنات افكاري وولوعك في طريقتي الكتابية .

والان اعلمك اني قياماً بوصيتك تركت التجارة منذ وفاتك ولم اعد احفل في كسب المال بل في اكتساب صناعة الادب — تلك الصناعة التي ابتغيتها لي .

ابتدأت باسمك اجر يراعي واخط هذه الرسائل أناجيك بها لاستمد منك علماً وعرفاناً ولاظهر لك كيف اصبحت بعدك مهيض الجناح بلا اخ يأخذ بيدي في الملمات ولا رفيق استعين به على الطوارئ .

اعذرني لاني ابعث اليك برسائلي مفتوحة لجهلي عنوانك ومحل اقامتك وسأزاول مواصلتك حتى ايأس من جوابك . فعندئذ اعتقد انك لم تستلم رسائلي ولم تسمع نجواي لوجودك في قارة بعيدة لا هاتف فيها ولا اثر للمواصلات بيننا وبينها .

يا اخي : يخال اليَّ ان الوصول الى عالم الزهرة والمريخ واكتشاف ما فيها من عجائب المخلوقات وانواع الحياة أهون علينا من اكتشاف عالمك .

ولكن ما العمل وانت العزيز الغـالي عليّ اعلل النفس بالوصول اليك تعليلاً ولو كان هذا الامر مستحيلاً .

يا اخي : كنت اعهدك تكره التعقيد والخفـايا وتحب الحقيقة واضحة كالشمس فمـالي اراك امسيت في ضمير التراب سراً مطوياً لا تعلمني كيف حالك ولا تثبت لي وجودك .

لقد امسيت بعدك ولا عزاء لي سوى في صرير اليراع وصفحات الكتب . ولهذا السبب كرست حياتي الباقية للدرس والتنقيب لعلي احل عقدة من عقد الكائنات او اكتشف سراً من اسرار الحياة . وسأتخصص في علم النفس وفي درس طبائع البشر ربما اصل الى نتيجة حاسمة استعين بها للقضاء على مساوئ الانسانية وخزعبلاتها .

سأعمل في حقل العلم بلا ملل ولا كلل وجلّ ما ابتغيه ان اكون كالشمعة تحرق نفسها لتعطي النور لغيرها .

اريد ان اكون عضواً مفيداً لابناء الحياة قبل ان اغادر الحياة .

الرسالة العاشرة

بيروت في ١٥ ايار سنة ١٩٣٠

تركت معارفي مكتومة في طيات دماغي وشواعري مخبؤة في حنايا صدري .

يا اخي :

اظهرت لي شدة اسفك لمغادرتك الحياة دون ان تترك اثراً أدبياً يذكره الناس بعدك فيترحمون عليك ولكن لست وحدك قضيت هكذا بل كثيرون مثلك قضوا نحبهم دون اظهار نبوغهم .

الحق اقول لك اذا استترت مواهبك عن الناس فأنها غير مستترة عن تلك القوة المبدعة التي لا يفوتها علم عن دخائل مبدعاتها .

فكما يعلم الكيماوي بدقة جميع اجزاء مركباته هكذا هي عليمة بخفايا قلبك ودخائل ذهنك .

ان خلودك تجاه المبدع ابقى لك من الخلود في اذهان البشر وفي صفحات الكتب . وعظمة نفسك المستمدة من نبلك وحسن سجاياك ابعد اثر من كل عظمة واثر .

وفضلاً عن ذلك ان اخاك الذي عاشرك طيلة حياتك وامتزج بك امتزاجاً ادبياً وسبر غور ذهنك ودرس خفايا قلبك وحسن نيتك لا ينفك يكتب عنك كتابة حقة ويعرّفك الى الناس تعريفاً صحيحاً .

يا اخي : انا عالم انك بغنىً عن كتابتي وتعريفي ولا حاجة لك ولا نفع بكل ما يخطه يراعي لان الدنيا كلها اصبحت في نظرك خرقة بالية لا مقام لها في نفسك ولا شأن لذكرها في ضميرك .

ولكني انا اخوك المفجوع بك اكتبُ عنك ما اكتبه تهدئةً لعواطفي وارضاء لنفسي لان عزائي قائم في احياء ذكرك وسلوي في التحدث عنك .



الرسالة الحادية عشرة

بيروت في ٢٢ ايار سنة ١٩٣٠

صوّر نفسك تصويراً صحيحاً

يا اخي :

نصحتني قبل وفاتك ان ازاول الكتابة ولكنك شرطت عليّ ان اصور نفسي تصويراً صحيحاً لانك تريد ان اكتب حقيقة شعوري وصحة اعتقادي بلا مصانعة ولا مواربة .

وطالما انتقدت امامي الشعراء والمنشئين الذين لم يصوروا حقيقة وجدانهم في منثورهم ومنظومهم فجاءت مؤلفاتهم سقيمةً لا يأبه لها الناس ولا يعيرونها التفاتاً .

يا اخي : اعاهدك واقسم لك اني لا امسك اليراع الا لاخط ما اشعر به وما اعتقده صواباً .

لقد اعلنتُ استقلالي عن الناس كي لا اتأثر من مذاهبهم وبيئاتهم . وجردت نفسي عن محيطهم لاكتب مجرداً عن مجامعهم

واهوائهم .

وهـا قد حطمت قيود الاجيـال التي كانت تقيد عنقي ونزعت غل الاجداد الذي كان يشدد النكير عليّ واخـذت امشي في عالم الفكر حراً طليقاً ادون ما اختبره بنفسي صحيحاً واكتب ما ارتأيه بذهني صريحاً .

اقول الحق ولا اخشى لومة لائم .

ليس من مبدأي الوقوف عند معرفة الاسلاف ولا من مذهبي التقيد في نواميسهم وقوانينهم .

ان مبدأي ينحصر في اطلاق الفكر من عقاله ومواصلة البحث والتنقيب في درس الحياة واكتشاف اسرار الكائنات لاننا لم نزل حتى الان في معرفة الكون اطفالاً لا ندرك غير اليسير من اخباره واسراره .

لا مشاحة ان الاجداد اشتغلوا في درس حقـائق الكون وتركوا لنـا من علومهم ومعارفهم تراثاً جديراً بالاعتبـار . ولكنهم كانوا في مناحي شعورهم اقرب الى عالم الخيال منهم الى عالم الحقيقة .

ولهذا السبب بنت لنا مخيلتهم في عالم الخيال بناء فسيحاً واما بناء عقولهم في عالم الحقيقة فكان ضيقاً ضئيلاً .

وجاء العلم في هذا العصر ينقض ابنية الخيال ليضع مكانها حجر الزاوية لبناء هيكل الحقيقة .

سأشتغل طيلة عمري عاملاً من عمال هذا الهيكل رجاء ان اشيد صفاً من صفوفه او على الاقل حجراً من حجارته .

واذا لم استطع بناء فاقوم جهدي في خدمة بُناته .

يا اخي : لا يهمني في التشيع للحق رضى السلطات وعدم رضاها ولا اضطهاد الجهال وازدراء المتعيشين والمتزلفين .

وفضلاً عن ذلك لا ادعي العصمة في كتابتي فاذا اخطأت في بعضها فصراحتي تشفع بي امام الناس الذين خبروني وتجاه المبدع الذي يعلم نيتي .

الرسالة الثانية عشرة

بيروت في ٢٧ ايار سنة ١٩٣٠

لم اعش طويلاً ولكني عشت شريفاً

يا اخي :

هذه العبارة الحكيمة التي اتخذتها عنواناً لرسالتي الان هي من بعض حكمك التي زودتني بها قبل توديعك الحياة .

تلك الحياة التي لا تقاس بطولها وقصرها بل بما تذخره من جليل الاعمال وشريف المآثر .

يا اخي : اشهد فيك شهادة حق، انك بلغت في حياتك القصيرة مركزاً هاماً في عالم التجارة وادركت ما لا يدركه المعمرون من طيب الاحدوثة ومضاء العزيمة . لانك قضيت عمرك محباً للصدق والعمل ابياً شريفاً لم تلوث حياتك بالاثم ولم تدنس شبابك بالمساوئ .

لم تكن عالماً ولا فناناً ولا مخترعاً . لم تكن عظيماً كما يفهم

الناس العظمة ولكنك بالحقيقة كنت نابغاً في تنظيم اعمالك ومثالاً صالحاً في نزاهتك ومبادئك القويمة .

وليس على المرء ان يكون عبقرياً ليعد عظيماً بل هو عظيم في نظري كل من احب عمله واتقنه وكان فاضلاً — لان غاية الحياة حب العمل والفضيلة .

الرسالة الثالثة عشرة

بيروت في ٢٨ ايار سنة ١٩٣٠

لم اعمل في حياتي عملاً معيباً تستحي منه

يا اخي :

اخالك قبل ان كلمتني بهذه العبارة قد استعرضت سني حياتك منذ طفولتك الى يومك الاخير وامتحنت نفسك امتحاناً كلياً فلم تجد شيئاً معيباً صدر منك ولا وصمة تافهة تؤاخذ عليها .

يا اخي : لقد بلوتك كما بلوت نفسي وعلمت دخائلك كما اعلم دخائلي لانك قضيت معظم حياتك بجانبي .

فلم ارَ وايم الحق حيـاة ترمز الى المثل الاعلى افضل من حياتك ولا قلباً اطهر من قلبك .

كلما شئت ان اراك استنجد مخيلتي فتعيد اليّ ملامح طفولتك ورسم صبوتك وشبابك .

و كلما اردت ان اقرأ تاريخ حيـاتك افتح كتاب ذهني واتصفّحه صفحة صفحة فاحيط علماً عنك منذ ولادتك الى يوم وفاتك .

الحق اقول لك انك مثّلت رواية الحيـاة احسن تمثيل وحزت قصب السبق في جميع ادوارها .

فلم يكن اودع منك في الطفولة ولا ابرّ في الصبوة ولا اكمل في الشباب ولا اشجع في الموت .

لم تأت في حياتك امراً فرياً لانك كنت حكيما جداً تنظر الى عواقب الامور قبل اتيانهـا . وكان شعـارك دائماً هذه العبارة .

لا نجاح بلا حكمة ولا حكمة بلا تفكير وتروّ

ولا ازال اذكر بعض احاديثك التي تنم عن روائع

حكمتك منها : انك سمعتني مرة اشكو لبعض الناس هماً نزل بي و كنت لا تثق بهم فهمست باذني قائلا :

يا اخي : لا تشكو همك لمن لا يحبك ولا تظهر ضعفك لمن يجب ان تظهر له مقدرتك .

وفي ذات يوم كنا نتحدث عن التضحية فقلت لي : جميلة هي التضحية التي يبشر بها الاوليـاء ولكنها اسم لغير مسمي لان الناس مطبوعون على حفظ كيانهم ولا تضحية مع حفظ الكيان .

وسمعتك مرة تقول: ان جميع المصاعب التي تحصل لنا في معترك الحيـاة ناتجة بالاكثر عن جهلنا طريق الحياة الامينة لنعيش بمعزل عن المتاعب والمصاعب .

ثم اردفت هذه العبارة :

ومن عرف ان يمهد مصاعب نفسه يجب عليه ان يسعى لتمهيد مصاعب الاخرين — لان افضل الناس انفعهم للناس .

هذا مثال من احاديثك التي كانت تدل على سمو فكرك وكمال عقلك ولم تكن اعمالك سوى نتيجة احاديثك وتفكيرك العميق .

الرسالة الرابعة عشرة

بيروت في ٣٠ ايار سنة ١٩٣٠

خذ رفاتي الى الوطن وضعها في لحد امي

يا اخي :

أوصيتني بنقل رفاتك الى الوطن وحتمتَ عليّ ان اضع بقاياك في اللحد الذي يضم بقايا الوالدة التي قامت بمهمّة تربيتنا افضل قيام .

لم ازل اذكر ان موت الوالدة أثّر بك تأثيراً عظيماً لانك كنت تتمنى ان يمدّ الله بعمرها لتراك شاباً كما رأتني قائماً بواجباتك نحوها شأن كل ولد بر يحترم ابويه ويعطف عليهما .

اما وقد ماتت قبل آوانها واستحالت عليك مجاورتها في الحياة فاحببت ان تجاورها ولو في احشاء الارض لتختلط عظامك بعظامها وتتحد ذراتك بذراتها لعلّ الارض التي هي امّ كل ذي حياة ينفحها المبدع من روحه فتتمخض بكما

وتعيدكما الى الحياة كما كنتما خير ام لخير ولد .

يا أخي : لقد تعذر عليَّ نقل رفاتك الى الوطن حالاً لان الحكومة المكسيكية لم تسمح بذلك الا بعد مرور سبعة اعوام على وفاتك ولهذا السبب لم تزل حتى الآن مستقراً في ضريحك تحضنك تراب العاصمة التي احببتها كثيراً وتحنو عليك عن اخيك اشجارها وتنوح فوق رمسك عن ابيك وعقيلة اخيك وشقيقتيك حمامها وسائر اطيارها .

نم مطمئناً في لحدك فتى حان الآوان استجاب رفاتك لا لاضمها فقط في لحد امك بل في جوف تابوتها وبين عظامها . واذا لم ابقَ حياً تقوم عيلتي مقامي لان كل ما يتوجب علي قضاؤه يتوجب عليها .



الرسالة الخامسة عشرة

بيروت اول حزيران سنة ١٩٣٠

لا تحزن على فقدي

يا اخي :

اوصيتني الأ احزن على فقدك وهذه هي الوصية الوحيدة التي لم اقم بها حسب مشيئتك وارادتك . لاني كلما تأملت في شدة محبتك لي التي لا تعدلها محبة و كلما فكرت كيف كنت حتى في اشد ساعاتك ضيقاً غير حافل بالداء الذي كان يلتهمك التهاماً ولا بالالم الذي كان يطويك طياً بقدر احتفالك بي والتفاتك الي تنهمر دموعي عفواً بالرغم مني واصبح ولا ارادة لي مستسلماً بكليتي الى لواعج الحزن وبوارح الاسى .

يا أخي : انا بشرٌ كما تعهدني والطبيعة البشرية كثيرة الضعف — وكل ضعف يتطلب معيناً ومن خسر معينه يتفاقم خطبه وتكثر بلواه .

اجل ان فلسفة العقل تقضي على المرء الذي يخسر معينه بان يرضخ لأحكام القضاء التي لا مردّ لها — فاذا لم يكن ماتريد فأرد ما يكون — ولكن فلسفة الشعور هي غير فلسفة العقل .

والشعور نوعــان شعور مادي وشعور ادبي . هذا دواؤه من نفسه — وذاك دواؤه من غيره فمن يشعر بالجوع او العطش وشعوره ماديٌ صرف فليس له من دواء سوى الغذاء او الماء .

واما من يشعر بوطأة الحزن القاتل وشعوره ادبي بحت فماذا يكون دواؤه ؟

يقولون ان انجع الادوية الصبر وتناسي المصيبة . وأما انا فأقول مناقضاً : ان الحزن دواؤه الناجع التعمّق في الحزن والمصيبة دواؤها الشافي التفكر في المصيبة.

كنت قبل ان فقدتك يا أخي لا اغشى المدافن دون ان اشعر برهبة وانقباض في نفسي . واما اليوم فقد زال جزع الموت عني واصبحت اشعر بارتياح كلي حينما ارافق جنازة الى مقرها الاخير واقف خاشعاً بين القبور متأملاً بقايا اناس كانوا مثلي ممتلئين صحة وحياة فامسوا في ضمير التراب تراباً .

ان القبور تُلقي عليّ وعلى الاحياء جميعهم عظة لالغة لها ولكنها من ابلغ المواعظ يفهمها الناس على اختلاف لغاتهم

واجناسهم .

تلك هي عظة الموت – عظة الرجوع الى احضان امنا الطبيعة .

يا أخي : ان الحزن الشديد الذي استحوذ عليّ من جراء فقدك بدلاً من ان يضيرني وينهك قواي كما كان منتظراً اصبح لي مفيداً جد الفائدة لانه ايقظ حواسي وروض ذهني ووهبني مناعة روحية ليس فوقها مناعة فامسيت اقوى على احتمال مكاره الحياة مهما كان خطبها جسيماً وألمها عظيماً .

لم انتصر على الحزن الا بعد ان دخلت صميمه فعندئذ بان لي ان الرجل الذي يدركه اليأس هو ذاك الذي يريد ان يهرب من الحزن فيقتله الحزن

واما الرجل الذي يستقبل خطبه غير هائب ويستوعب حزنه غير واجل فهو ذاك الذي يوجد لنفسه من الخطب راحة ومن الحزن حياة .

وانا هو ذلك الرجل

الرسالة السادسة عشرة

بيروت في ٢ حزيران سنة ١٩٣٠

الوداع يا ابي الحنون ويا عزيزتي اغنس وياحبيبيّ
رفيق وسلوى — الوداع ياشقيقتيّ العزيزتين

يا اخي :

مثلما كنت تصعّد انفاسك نفساً اثر نفس هكذا قمت تودعنا فرداً اثر فرد . ولم تنس احداً من انسبائك ولا من اصدقائك ومعارفك كأننا جميعاً كنا حاضرين في ذهنك حين حضرتك الوفاة .

ابتدأت بوداع والدنا الشيخ ثم بوداع عقيلتي وولدّي رفيق وسلوى ثم بوداع الشقيقتين وسائر الانسباء والاصدقاء .

والآن ماذا اقول لك عن الوالد الحنون لقد امسى يؤثر الموت على الحياة وكم كان يعد نفسه سعيداً لو قضى نحبه قبل ان يتجرع كأس حزنه عليك وهكذا الشقيقتان لاتنشف لهما دمعة ولا ينضب لهما جفن

واما عقيلتي فقد ودّعت صفو العيش بعد وداعك وهي دائماً تلهج بذكراك . وفي كل صباح تأخذ ولديها امام رسمك وتقول لهما : هذا عمكما الخوري طانيوس الذي اصطفاه الله اليه قولا له : عم صباحاً « مامو » (١) فيحييانك مراراً قبل ان يبدأن باللعب في افناء الدار .

وقد اصبحا اليوم كلما عنّ لهما مرآك يذهبان وحدهما الى حيث رسمك ويلفظان اسمك بأجلى بيان .

واما ابن اخيك رفيق الذي كان عمره عقب وفاتك دون العامين فبقي مدة طويلة يسأل عنك بالحاح كلي . ويقرع باب غرفتك صائحاً « مامو مامو »

وفي ذات يوم لشدة صياحه فتحت له باب حجرتك فولجها ثم ذهب تواً الى فراشك واخذ يناديك على عادته ـ ثم التفت يمنة ويسرة فرأى معطفك لم يزل معلقاً قرب سريرك فهرول اليه وقبّله كما كان يقبّلك ثم نظر اليّ واشار الى المعطف وصاح بملء فيه : « مامو مامو »

وهكذا كان على المائدة يذهب الى مكانك ويضع يده على كرسيك طالباً حضورك بالحاح تام .

---

(١) كان ولدنا رفيق ينادي عمه «مامو»

وفي اليوم الذي غادرت به عاصمة المكسيك ذهبت وعقيلتي لزيارة قبرك واصطحبنا رفيق معنا . وكانت زيارتنا تلك زيارة الوداع .

هناك خاطبت الطفل رفيق الذي كان متكئاً على حائط لحدك قائلاً له : يا ولدي هنا يرقد بسلام عمك الحنون طانيوس « هنا مامو هنا مامو »

فعندئذٍ انحنى الطفل على قبرك يناديك ثم قبّل الرخامة المحفورة اسمك عليها ثم رفعته بيدي الى الصليب القائم فوق حجرتك فقبّله مراراً ثم بكى معنا بكاءً مراً ولفظ مثلنا كلمة الوداع — وانصرفنا .

فاذا كانت هكذا حالة ولدنا رفيق من بعدك يا أخي رغم طفولته وعدم تقديره عظم مصابك وجليل خسارتك — فكيف تكون حالتنا نحن الذين خبرناك وعرفناك ؟

انها لعمري حالة يأس وحزن شديد



الرسالة السابعة عشرة

بيروت في ٥ حزيران سنة ١٩٣٠

الوداع يا وطني يا مثوى الاباء والاجداد

الوداع يا أخي

يا اخي :

هذه هي عبارتك الاخيرة التي لفظتها قبل وفاتك . كأن لبنان في تلك الساعة الرهيبة قد تجلّى امامك فشعرت أنك غريب عن ديارك وكافة اهلك .

فعزّ عليك كثيراً دنو أجلك في منأك ووددت ان يغمض الله جفنك في لبنان ليثوي جثمانك تحت صخرة من صخوره او قرب شجرة من اشجاره

وجل قصدك ان يمسي هيكلك الذي كان يحمل نفسك الكبيرة جزءاً غير منفصل عن تراب الوطن الذي احتضنك صغيراً وهو يحضن الان بقايا ابائك واجدادك الذين امسوا تراباً

ممزوجاً بترابه و كياناً متحداً بكيانه .

يا أخي : لا انسى ما زلت حياً كلمتك الاخيرة (الوداع يا أخي) تلك الكلمة التي ودّعت الكلام حين ودعتني بها .

لا انسى ابداً كيف تحرّكت عند لفظها شفتاك ثم أطبقتا اطباق الموت ـ ولا انسى كيف نطقها لسانك ثم خرس الى الابد ـ و كيف حدّقت طرفك بي ونظرتني بعيني عقلك وبصرك ثم ابتدأت تتقزّز عيناك ـ ثم جدتا ـ وبعد هنيهة اطفىء نورهما الى الابد .



الرسالة الثامنة عشرة

بيروت في ٦ حزيران سنة ١٩٣٠

يوم الموت

يا اخي :

دخلتُ في هذا الصباح الى مكتبي وبعد ان حيّيت رسمك كعادتي أجلت نظري في الروزنامة المعلّقة امامي فقرأت على صفحاتها تاريخ اليوم .

هذا اليوم الواقع في السادس من حزيران والموافق منذ عام ليوم وفاتك .

انه لعمري اشدّ الايام هولاً عليّ ولهذا السبب دعوته بحق يوم الموت .

انا الان جالس الى مكتبي في مدينة بيروت ولكنّ مخيلتي لم تجلس معي بل طارت بذهني الى عاصمة المكسيك – الى المحل التجاري الذي كنا نشتغل فيه معاً – الى البيت الذي كنا نسكنه – الى مخدعك – الى تشخيص مرضك الاخير –

الى ساعة نزاعك _ الى يوم مأتمك .

ان سني حياتك في المكسيك مرت كلها امـامي كما تمر الصور المشبّحة على لوحة « السينما » وكانت مخيلتي هي الآلة « السينمائية » التي مثلت جميع ادوار حياتك .

والان ماذا اقول لك عن يوم مـأتمك وهو اليوم الذي مثّلت فيه رواية الموت . انه وايم الحق لا يغرب عن بالي ولا يجلو عن ذهني .

ان خبر وفـاتك وقع على اصحـابك ومعـارفك وقوع الصاعقة وجاؤوا من كل فج وصوب يشاطرونني العزاء افواجاً افواجاً وهم يبكون بحرقة شبابك الغض وادبك الجم .

لقد غص البيت على رحبه بقوافل البـاكين والمعزّين وامتزج الخادم والمخدوم في مأتمك لانك كنت صديقاً للاوفياء والمخلصين من اي طبقة كانوا لا لذوي النفوذ المستبدين ولا للاغنياء المتعجرفين .

يا اخي : لم تزل نصب عيني تلك السـاعة الرهيبة التي وُضعت بها في تابوتك _ وتلك الآونة التي بها انحنيت الثمك بكل قواي ويداي تطوقان التـابوت الذي اعدّ لك فراشـاً وغطاء ليس فقط منذ صنعه الانسان بل منذ تمخضت الطبيعة

بخلق موادّه الاولية .

كان مأتمك فخماً للغاية مشى فيه الكبير والصغير والغنيّ والفقير ـ وكان المشيعون يزيدون على الالف وهم يمثلون امماً عديدة من اميركان وانكليز وافرنسيس واسبنيول وخلافهم .

وكانت الجالية اللبنانية السورية باسرها

وكان من المكسيكان جمع لا يستهان به .

واما تابوتك فكان جميلاً جداً ولكنه لا يوازي جزءاً من جمال شبابك ولا من جمال نفسك ـ كان مصنوعاً من البرونز الخالص ومبطناً بأجمل الحرائر وافخر النفائس .

كنت مسجىً في جوفه كأنك ملك نائم وسط عرشه ـ والشموع مضاءة فوق رأسك وتحت اخمص قدميك ـ والناس حولك خاشعون كأنهم من بطانتك ورجال ملكك .

ان عرشك كان عرش الموت ـ وعرش الموت هو عرش الحياة .

فكما ان الشجرة لا تنبت الا بعد اضمحلال نواتها والقمح لا ينضج الا بعد انفلاق بذاره هكذا انت لم تنتقل من حياة الى حياة الاّ بعد موتك .

ولا فرق عندي الان اذا حصل انتقالك على لغة الدين او

على لغة الطبيعة .

اقول هكذا لان الانتقال بلغة الدين محصور بالانسان وحده واما الانتقال بلغة الطبيعة فيشمل المخلوقات جميعها والكائنات بأسرها .

اذا ذبلت اوراق الزهرة وتلاشت براعمها فاريجها الذي يعطّر الفضاء ويدعوه الكيماويون كهارب الحياة لا يدركه الزوال بل يعود الى الحياة ويكوّن لنفسه براعم جديدة يحوكها من شعاع الشمس وخيوط الهواء وسماد الارض .

وهكذا امنا الطبيعة فمتى حان حينها تتفكك حلقاتها وتصبح سديماً كما نصبح تراباً ثم تتحد بامها اللانهاية كما نتحد بها .

ثم تكوّن لنفسها بعد اندثارها حياة جديدة كما تكون النواة جذوع شجرتها العتيدة .

ان التعاون يبدو جلياً في الحياة والموت . فكما تتعاون الذرات وتتحد كيماوياً لتؤلف جسداً حياً هكذا تتعاون ايضاً لاتلاف هذا الجسد واعدامه .

ان الكهارب الصغيرة التي يتألف منها الكون باسره هي بحد ذاتها معامل هدم ومعامل بناء .

فكما تنتج هذه المعامل اصغر المخلوقات حجماً هكذا تصنع اعظم الشموس نوراً واضخم الكواكب جرماً. ثم تتلف ادنى مخلوقاتها كما تهصر اسطع شموسها .

كل جسد مهما كان صغيراً هو معمل حق ولكنه جزؤ مصغّرٌ من معامل الكون التي لا نفاد لها .

تشتغل معامل الكون بلا انقطاع ولا ابطاء تبني اجساداً ثم تهدمها وهكذا هي تبني وتهدم الى ما شاء الله .

يا اخي :

بمثل هذه الفلسفات وجدت عزاء لنفسي بعدو فاتك لاني لم اكتفِ بفلسفة الدين الذي يؤمّن خلودك فذهبت الى ابعد من ذلك واخذت ادرس الكون مادةً مادة لاثبت خلودك بالمادة كخلودك بالروح . ثم تناولت فلسفة الحياة والموت واشبعتها بحثاً وتنقيباً فبان لي ان الفناء لا أثر له البتة وان الموت هو مبعث الحياة كما ان الحياة هي مبعث الموت .

وظهر لي ايضاً ان الاجساد المتنوعة والاكوان المنفصلة بعضها عن بعض ما هي بالحقيقة سوى مجموع كون واحد فقط كما ان القوات الكهربائية التي تحرك معامل الكون وتدير نظامه العجيب ليست هي بالحقيقة سوى مجموع قوة واحدة هي قوة الله.

الرسالة التاسعة عشرة

بيروت في ٢٠ حزيران سنة ١٩٣٠

خبر عن صحف الحياة

يا اخي :

كما ينشر الموت صحفه معلناً في كل لحظة ضحاياه هكذا تنشر الحياة في كل آونة اخبارها معلنة مواليدها الجديدة ٠

ومن مواليدها الان مولود يهمك معرفته لانه يمت بنسبه الى اقرب الناس اليك واحبهم الى قلبك ٠ كيف لا وهو ابن اخيك وسليل ابيك وجدك ٠

جاء العالم في هذا اليوم — يوم الجمعة الواقع في العشرين من حزيران سنة ١٩٣٠ الساعة الحادية عشرة ونصف ساعة مساء ٠

جاء من العالم المجهول الى هذا العالم ودعوناه باسمك منذ مجيئه لانه يشبهك جد الشبه — عينـاه تشعان نوراً وجمالاً كعينيك ووجهه مستدير وجذاب كوجهك ـ ولونه حنطي كلونك ٠

بكي منذ ابصر النور ولا ادري لماذا استقبل الحياة باكياً .

هل هو يؤثر الظلام على النور او الموت على الحياة .

او بالاحرى بكى لانفراط عقده عن امه حيث كان في احشائها متصلاً بها فاصبح منذ ابصر النور منفصلاً عنها .

هو من مواليد اليوم ولكنه ليس ابن يومه لان ولادته الان ليست بدء حياته الحاضرة بل هو بحق يدعي ابن اليوم الذي به انفرط عقده عن ابيه وتصور في احشاء امه .

هل بكى ساعة انبثقت حياته في جوف الرحم كما بكى الان اثر ولادته .

لا ادري فربما بكى ولم اشعر ببكائه وتألم ولم احس بألمه

يا اخي : يخيّل اليّ ان بكاء الطفل ساعة ولادته ينمّ عن شعور فطري يوحي اليه انه ودّع حياة سابقة لحياته ووجوداً سابقاً لوجوده .

فكما يشعر النازح جديداً عن وطنه بألم الغربة ومضض الفراق هكذا يشعر المولود عند ما يبصر النور فيبكي لاغترابه عن محيط ألفه ويتألم لوداعه حياةً سبر غورها واتخاذه حياة جديدة لا يدرك كنهها .

وبعد قليل ينسى الطفل حياته الماضية كما ينسى ساعة ولادته ومتى شب ينسى طفولته بتمامها ويشعر بوجوده كأنه لم يكن طفلاً قط .

ولكن نسيانه لا ينفي مطلقاً مروره على ساعة ولادته وعلى ايام طفولته .

هكذا حياته الماضية لا ينفي نسيانه لها وجودها .

ان الاجيال المقبلة التي سترث الارض بعدنا هي بالواقع موجودة حقاً في هذا الكون ولكننا لا ندري الان اين تمرح ولا ماذا تعمل تلك الذرات والكهارب التي ستتركب منها اجساد امم الغد .

كما اننا ايضاً لا نعلم اين هي تلك الذرات التي منها كانت تتألف اجساد الامم الغابرة وبقايا القرون الدارسة .

ان عدم معرفة الشيء لا ينفي وجوده .

ألم نكن بشر اليوم منذ جيل في عالم الغيب فصرنا في عالم الحياة ولا شك غداً نكون في عالم الموت .

هكذا الاجيال كلها ستقفو أثرنا وتتعاقب جيلاً بعد جيل .

ان العالم الالماني اينستين قام في هذا العصر يبشر بالنظرية

النسبية التي تقول بحدود الكون وبرجوع الاشياء الى محلها كما ان الارض تدور دورتها حول الشمس ثم تعود الى مكانها ثم تستأنف دورانها .

هكذا ايضاً يلوح لي ان الوقت يدور دورته ثم يعود الى مكانه كجميع العوامل الكونية

فكما يصبح الحاضر ماضياً والمستقبل يمسي حاضراً هكذا يعود الماضي مستقبلاً ثم حاضراً ثم ماضياً وهكذا دواليك .

ان الكائنات والحياة والاوقات كلها تدور دورتها ثم تعود الى مكانها ثم تستأنف دورانها الى ما شاء الله .

يا اخي : يتراءى لي ان الكون حركة دائمة وما الحياة والموت سوى نتيجة تلك الحركة .

الرسالة العشرون

بيروت في ٢٥ حزيران سنة ١٩٣٠

خبر عن صحف الموت

يا اخي :

مات بعدك كثيرون ونشرت صحف الموت اخبارهم .

مات عدد من رجال الحسب والنسب ورهط من رجال السياسة والحرب .

فقام الناس وقعدوا لهؤلاء واولئك بالسواء .

نعاهم الراديو الى العواصم وامهّات المدن ونقلت اسلاك البرق خبر وفاتهم الى جميع انحاء المعمور .

اثبتت رسومهم جرائد الامم و كتبت عنهم الفصول الطويلة معدّدة تاريخ حياتهم وجليل مآثرهم ونُصب لمعظمهم التماثيل الفخمة والقبور الثمينة .

ان موتهم اشغل العالم قاطبة مع كونهم لا يتجاوزون المئة عداً .

واما غيرهم الذين ماتوا في هذا العهد وكانوا الوفاً مؤلفة فلم يشغلوا غير جزء يسير من محيطهم حيث لم يشعر بموتهم غير اقربائهم الادنين واصدقائهم المخلصين .

ان حياتهم كانت كحياة الاشجار لم يشعر بوجودها غير اصحابها ومن جاورها وعابر الطريق .

ولكن لا بأس فبين هؤلاء المنسيين من عالمهم من كانوا قدوة صالحة في سمو اخلاقهم وانموذجاً حسناً في استقامتهم وتهذيبهم .

وفضلاً عن ذلك ليس كل من خفق ذكره في الافاق هو من خيرة الرجال ولا كل من عاش ومات منسيّاً هو من الخاملين .

فكم مغرور بعد صيته وافاك انتشر اسمه في الخافقين . وكم شهم فاضل كان من اكمل الرجال ادباً وخلقاً عاش ومات بلا ضجة عالمية لعدم اكتراثه للاباطيل الدنيوية .

فاذا كان هذا العالم يؤثر اناساً على اناس وينسى بعضهم وينتبه الى البعض الاخر . فالموت لا يعتوره النسيان ولا يفرق شخصاً على شخص ولا انساناً على حيوان ولا نباتاً على جماد . فهو يطوي كل من حان حينه في كتابه وينشرهم جميعاً بلا

تمييز في صحفه .

فمن لم تذكر صحف العالم خبر ولادته فقد اعتاض عنها بصحف الحياة ومن فاته ان تنشر تلك الصحف نعيه فلا تفوته صحف الموت .

ان للحياة والموت كتباً وصحفاً لا يعتورها الفناء لانها منشورة على جبين الازل . واما صحف الناس و كتبهم فكلها زائلة لانها مطبوعة على صفحات الزوال .

فاذن الى البقاء ما تنشره صحف الحياة والموت والى الفناء ما تنشره صحف الناس .

يا اخي : مات بعدك من الذين يهمّك امرهم يوسف ابن العم سليمان .

وُلد في بلدة استرادا نوفا التابعة ولاية الريو من اعمال جمهورية البرازيل وقضى نحبه هناك في مستهل شبابه .

لم يسعدك الحظ بان تتعرّف اليه في هذه الحياة الدنيا لانك سكنت بلاداً وسكن غيرهـا وكان بينكما بعد شاسع وبين بلاديكما بحار وقفار وممالك عديدة .

واما الان وقد انتقلتما الى عالم الموت فهل التقيت به في طريقك وتعرّفت روحك الى روحه او بالاحرى يوجد في عالم

الموت فواصل تفصل الارواح عن معرفة بعضها بعضاً كفواصل هذا الكون .

وهل كل فئة من الارواح تستعمر ناحيةً من العالم الاخر وتستقل بها كما استعمر الناس هذا العالم واستقلت كل فئة من البشر في بقعةٍ من بقاعه ؟

لا ادري — قد تعرف الارواح متى تحرّرت من المادة بعضها بعضاً وربما لا تعلم سوى محيطها ومن تخالطه ويخالطها .

ولكن مهما كان الامر فاني اتمنى من صميم الفؤاد ان تكون وابن عمك ووالدتك وكل من تحبّه راتعاً واياهم هنيئاً في دائرة واحدة من دوائر الخلود .



الرسالة الواحدة والعشرون

شرتون في ١٩ تموز سنة ١٩٣٠

عن بلدة الآباء والجدود

يا اخي :

ابعث اليك بهذه الرسالة عن شرتون التي هي بلدة آبائك واجدادك ومرتع طفولتك وصبوتك .

جئتها البارحة برفقة عيلتي وكان الوالد الحنون قد سبقنا اليها منذ بضعة ايام .

ان ازقة هذه البلدة وساحتها ومدرستها ودار كنيستها وبيوتها وحقولها كلها تحمل تذكارات حداثتك ومعظم سني حياتك في لبنان .

ولهذا السبب تراني الان اتخيلك امامي انىّ توجهت وكيفما حللت .

اتمثلك تارةً حدثاً صغيراً جالساً مع اترابك في مدرسة

القرية تتعلم اصول الهجاء. وطوراً تبدو امامي كأنك لم تزل تلعب معهم في ازقة البلدة ودار كنيستها.

ثم اتخيلك وقد بلغت رشدك وانبلج فجر شبابك متنزهاً برفقة فتيان القرية وفتياتها قاطعاً هضابها ومتنقلاً في بساتينها وحقولها.

كنت في ذلك العهد تستقبل نسيم الفجر فتبدو كأنك فجراً يستقبل فجراً او نسيماً يداعب نسيماً. وكنت في الحقل تجني الاثمار فتظهر فيه كأنك ثمراً يجني ثمرا.

في مطلع شبابك ما كان الورد افضل منك لوناً ولا كان النسيم اخفّ منك روحاً ولا ارقّ لطفاً.

والبيت — ماذا اقول لك عن البيت! كان عشنا في الصغر — في كنفه درجنا وفي ظل الابوين وتحت رعايتهما رُبينا.

دخلته البارحة وفي القلب غصة وفي العين دمعة. جلت فيه وكل ما فيه يذكرني بك يا اخي.

هذه غرفتك تحوي سريرك وكتبك وبعض امتعتك. وهذه رسومك العديدة التي تمثلك منذ صغرك الى يوم وفاتك معلّقة كلها في الدار وفي البهو وفي كل ناحية من نواحي البيت.

واما تحاريرك التي كتبتها لي وللوالد الحنون فلم تزل كلها محفوظةً بين كتبك ــ تلوتها البارحة رسالةً رسالةً فشعرت كأن وجدانك متجسّم في تلك الاوراق و كأنّ روحك مستترة بها . وسأعيد تلاوتها كل يوم حيث اخال نفسي كأني استعيد في قراءتها ايام حياتك .

خرجت من البيت الى الحديقة التي كنت ترمقها بعنايتك وجلست ازاء شجرة من اشجارها ثم اخذت امتع نظري تارة في شجر البلوط الباسق وطوراً في الازهار اليانعة والاشجار المثمرة .

في هذه الحديقة خاطبت نفسي قائلاً لها : هنا تحت ظلال البلوط كان يلعب اخي في صغره ويتنزه في صبوته .

هذه شجيرات التفاح والمشمش والرمان وما جاورها قد كان يأ كل من ثمارها ويتعهدّها بعنايته .

وتلك مغـارس الازهـار والرياحين قد كان يقطف من اقمارها ويرمقها بالتفاته .

ثم حولّت نظري الى الاعالي فشـاهدت الكرمة المشرفة على البيت – فصعدت اليهـا وكان العنب لم يزل حصرمـاً فا كتفيتُ بان استظل الدوالي وان اتمثّلك يا اخي آتيـاً من

كرمة الرب الى كرمة العنب لتجلس في ظلها ازائي .

اجل تخيّلتك في الكرمة كأنك حقيقة بجانبي — ضممتك الى صدري وحنوت عليك بكل قواي وخاطبتك بلساني وناجيتك بنفسي معرباً لك عن شدة شوقي اليك وفرحي بلقائك .

ثم انتفضت فزال الحلم عني فوجدت نفسي وحيداً في الكرمة وبعيداً عنك بعد الحياة عن الموت .

يا أخي : ان جلوسك بجانبي كان حلماً ولقاؤك سراباً .

الرسالة الثانية والعشرون

شرتون في ٢٠ آب سنة ١٩٣٠

ما هي الحياة الروحية

يا اخي :

حينما كنت في قيد الحياة كنا نتكلم كثيراً عما وراء القبر ولم ازل اذكر ليلة من الليالي سهرنا بها معاً الى مطلع الفجر

وكان محور حديثنا عن الحياة الروحية.

جئنا مراراً على ذكر اساطير الاجداد الاولين واديانهم الوثنية المتنوعة واعتقاداتهم المختلفة في حياة الارواح بعد فناء اجسادها .

فلم تكن تروي تلك الاساطير ولا تلك الاديان غليلنا مع ان واضعيها هم الذين وضعوا ايضاً وعلى لغة العلم اكتشفوا اساس الايمان بالحياة الروحية .

ثم انتقلنا الى اديانـنـا الحديثة — تلك الاديان التي نعتقد بكمالها وبأنها منزلة من لدن الله جل جلاله او موحاة منه تعالى الى رسله وانبيائه .

فتصفحنا تلك الكتب المنزلة صفحةً صفحةً واشبعناهـا درساً وتمحيصاً فلم نتبين في آياتها ومعجزاتها عن حياة الارواح اكثر مما كان يتخيله الاباء والاجداد الاولون . لان كل ما تقوله الكتب المقدسة في هذا الموضوع ينحصر بهذه العبارة :

ان الارواح الصـالحة تعيش في النعيم وهي تسبح الله وتمجده في ملكوته الى الابد . واما الارواح الطالحة فانها تُقيم على الدوام معذبة في نار ابديّة القرار .

يا اخي : يظهر لي ان الحيـاة الروحية لم تزل سراً مكنوناً

عن مدارك العقل البشري . وفضلاً عن ذلك لقد آمن الناس بوجودها في عصر همجيتهم كما في عصر مدنيتهم وفي عهد اديانهم المشركة كما في عهد اديانهم الموحدة . لأنهم استدلوا على صحة وجود الارواح بوجدانهم قبل ان يستدلوا بعقولهم .

وشعور الوجدان يسبق شعور العقل .

والان جئت اسألك : ماهي الحياة الروحية ؟ ماذا تعمل النفس بعد مفارقتها الجسد سواء كانت صالحة ام طالحة ؟ وهل تبقى الطالحة كما يقول الكتاب معذبة بنار الجحيم الى الابد والصالحة تسبح الله وتمجده على الدوام .

فاذا كانت الانفس في النعيم لاعمل لها غير التسبيح والتمجيد فقط فانت اذن غير مغتبط في نعيمك لانك كنت في حياتك رجل عمل وبرّ و كنت بهما تمجده تعالى لافي تكرار الصلوات و كثرة التسبيح والادعية .

والانفس الطالحة الا يصفح الله عنها بعد ان تكفر عن آثامها ! اليست الكلمة « الى الابد » رجاء ردع الاشرار عن غيهم كي لا يعمهون في ضلالهم متكلين على عفوه تعالى .

يا اخي . يخيّل الي ان الانفس سواء كانت محرّرة من المادة او مقيدة بها تعمل على الدوام مجدّة وراء رقيها وكمالها .

تعثر تارة وتنهض احياناً ولا تنفك متجهة نحو غايتها . وما غايتها سوى رجوعها الى اصلها لانها فرعٌ وكل فرع يعود الى اصله .

فكما يحمل السحاب مياه البحر ويقذفها فوق الجبال والسهول والاودية ثم تعود المياه بحكم الطبيعة الى البحر هكذا الى مصدر الروح ترجع الروح والى منبع الحياة ترجع الحياة .

اني اتمثل النفس كالكهرباء تشتغل مقيدة وبلا قيد وكالرائحة العطرية تعمل في الفضاء وفي قلب الزهرة على السواء .

فكما ان الارض لاتهداء دورتها والكهارب لا تقف حركتها هكذا الانفس لا يبطل عملها .

وجمال الحياة العمل .



الرسالة الثالثة والعشرون

شرتون في اول ايلول سنة ١٩٣٠

هل تفتكر بنا وبجثمانك البالي

يا اخي :

حلمت في الليلة الماضية اني عدت الى عاصمة المكسيك وذهبت توّاً الى حديقة تشبولتباك — تلك الحديقة التي كنت تؤثرها على كل حدائق العاصمة ومتنزهاتها .

هناك طفقتُ امشي بين رياضها الغنّاء واشجارها الباسقة متأمّلاً بك يا اخي وبالايام الماضية التي صرفناها تحت سماء المكسيك حيث كنا نرتاد هذا الفردوس الارضي معاً .

جلست الى ضفاف بحيرتها الجميلة امتّع الطرف في مناظرها الخلاّبة وفي القوارب العديدة التي تقل المتنزهين وتسير بهم ذهاباً واياباً .

ابتدأت الشخاتير تمرّ امامي واحدة تلو اخرى . هذا قارب في وسطه خوانٌ عليه مأكل ومسكر والناس حوله يشربون

ويأكلون .

وذاك قارب يحمل اناساً يعزفون ويرقصون ويغنّون .

وهناك قارب يضم رهطاً يتكلمون في التجارة والصناعة والمشاريع الاقتصادية . فحدقت بنظري في هذا القارب الاخير واصغيت لألتقط كلامهم فرأيتك يا أخي بينهم وسمعتك تتكلم معهم . فخاطبتك : قف يا اخي – انا هنا – فلم تقف ـ فناديتك بأعلى صوتي فوقفت في القارب دون ان تنبس ببنت شفة . فطرحت عليك هذا السؤال « هل تفتكر بنا وبجثمانك البالي ؟ » فلم تجب – ومشى القارب وذهبت في سبيلك .

وبينا عيناي شاخصتان بك تشيّعانك استيقظت فجأة فاذا بي على فراشي ـ فايقنت ان مرآك في القارب كان حلماً والان جئت اسألك وانا في يقظتي وكمال عقلي ما سألتك اياه في الحلم . هل تفتكر بنا يا أخي ام ان النفس متى تحررت من المادة تفقد شعورها وتنسى حياتها العالمية كما ينسى المرء اوائل طفولته .

او بالاحرى ان الشعور يتولّد من الجسم فتى زال الجسم زال شعوره !

واما انا فاعتقد كل الاعتقاد بان شعور الجسم هو غير

شعور الروح .

كنت يا اخي في هذه الحياة تروي حقل ذهنك من ينبوع نفسك وتنير صراطك القويم من منـارة روحك . فمن هذا الينبوع اطلب الان ماء ومن تلك المنارة هدياً .

اذا كانت الارواح لاصلة رحم لها حتى تفكّر في الاهل والبنين والاخوة والمحبين وتشعر بألم فراقهم كما يشعر بنو البشر فان بينك وبيني صلتين صلة الرحم وصلة الروح .

وان ذهب الموت بأخوّة المادة فلا يذهب بأخوّة الروح كنتُ واياك في عالم الفكر والتدبير والعمل كأننا واحد فقط . وكانت الاخوة الروحية بيننـا تبدو بتمامها في مختلف اعمالنا وطرق تفكيرنا .

فاذا كانت الانفس بعد انتقالها لا تعبأ بالمادة ولا تأبه لها أفلا تفتكر نفسك بنفسي وهي شقيقتها ورفيقتها في هذه الحياة الدنيا .

تجلّي اذن ياروح اخي امامي واعطفي عليّ كما كنت تعطفين في الحياة ـ فاذا كان جسدي يصدّك عن هذا التجلي ويحبس نفسي عنك فلا كان هذا الجسد ولا كانت هذه الحياة .

يا اخي : مهما كانت نفسك قد ابتعدت عن المادة أفلا

تفتكر على الاقل بجثمانها البالي الذي عتقته وكانت في الحياة تحرص عليه اشد الحرص وتسهر على تزيينه وتجميله . او أنها تحسبه بمثابة ثوب تعطل فنزعته عنها ومضت في سبيلها .

انْ كان الامر هكذا فقلّما تفكر به كما ان المرء قلّما يفكّر بعتيق لباسه وخرقه البالية .

يا اخي: يقول الطبيعيون ان لا شيء وراء الذرة التي هي جوهر الحياة ومنها تتركب المادة على اختلاف انواعها . فاذا كان الحق بجانبهم فتكون مخاطبتي لنفسك كمن يخاطب العدم .

واما انا فاني اعتقد بوجود النفس وخلودها كما اعتقد بخلود جوهر المادة ايضاً لأني ارى الوجود على نوعين وجود مادي ووجود روحي ـ فالوجود المادي مصدره الذرة او الكهرب واما الوجود الروحي فمصدره النفس .

ولا اعتقد بان الذرة او الكهرب يحوي الوجودين .



الرسالة الرابعة والعشرون

شرتون في ١٢ ايلول سنة ١٩٣٠

هل الشعور النفساني يرافق النفس او ينتهي مع الجسد
وايهما من الاثنين مصدر المساوى.

يا اخي :

منذ بضعة ايام انتابتني حمّى نافض هزّت اعصابي هزاً فشعرت بصداع والم لا مزيد عليهما.

غابت شمس النهار ولم تغب عني تلك الحمّى الخبيثة بل بالعكس ارتفعت درجتها في اوائل الليل ارتفاعاً هائلاً فأمسيت أتقلّب على احرّ من جمر الغضا واتلوّى على فراشي كما تتلوّى الاغصان تجاه العواصف. واخذ القلب يسرع في نبضاته اسراع الهارب من وجه عدوه والخائف على حياته.

في تلك الليلة الرائعة وتحت وطأة الصداع القاتل والقيء الشديد والالم الذي لا يطاق سمعت في داخلي كأن صوتاً يناجيني : تشجّع يا توفيق غداً او بعد غدٍ تستريح — ستزول

الحرارة وينتهي الالم سواء انتصر الداء على الجسد او الجسد على الداء ·

لم اتبين مصدر هذا الصوت الذي آساني وأخذ بيدي في اشد الساعات ضيقاً وألماً هل هو خارج من خلايا الدماغ او من جوهر النفس ·

ولكني اعلم اني حصلت على الراحة فعلاً في اليوم الثاني وانتهى الكفاح بانتصار الجسد على الحمى انتصاراً تاماً ·

فكما زال الالم بانتصار الجسد على الداء هكذا يزول ايضاً لو كان الامر بالعكس وانتصر الداء على الجسد ·

لقد نظرتك يا اخي وانت تتقلب على فراش الاوجاع وتغلي من وطأة الداء غليان القدر على النار وشاهدتك بعد وقوعك في مخالب الموت بارداً مستريحاً · لان الموت قضى على جثمانك وعلى شعورك وعلى الداء والالم جميعاً ·

يا اخي : مهما كانت وطأة الشعور بالآلام الجسدية شديدة فانها ولا شك تنتهي بانتهاء الجسد ، اما الشعور النفساني فماذا يحل به بعد الوفاة ؟

هل خسرت نفسك الصالحة شعورها بالرحمة والرفق والعدل ألا تتألم الان من فعل الظلم وسائر المساوئ كما كانت تتألم في

هذه الحياة الدنيا ! ام انها تعيش الان في عالم كامل لا يحتاج الى شعور .

لو كان هذا الكون كاملاً بمخلوقاتهِ لما كان للشعور معنىً لان الشعور يتولد من الحاجة لا من الكمال .

فكما ان الشعور بالجوع دليل الحاجة الى الغذاء والشعور بالراحة دليل التعب هكذا لولا الظلم لم نشعر بالعدل ولولا البغض لم نحسّ بالمحبة ولولا الاساءة لم نشعر بالاحسان .

يا اخي : اسألك الان عن ابناء السوء ما هو سبب سؤهم ؟

هل الشرّ يخرج من جوهر النفس او من جوهر الجسد ؟

فاذا كان الجسم مصدر الشر فمتى تحرَّرت منه النفس تتحرَّر ايضاً من الشر . واذا كانت هي المصدر فكيف تتحوَّل عن شرورها ؟

ان العوسج لا يتحوَّل عنباً كما ان العنب لا يفضل العوسج الا بأصله .

واما انا فلا اعتقد ان في جوهر النفس سؤاً لاني كلما اسأت اسمع صوت ضميري يؤنبني على الاساءة وصوت الضمير هو صوت النفس . ولهذا السبب يتراءى لي ان النفس كاملة بحد ذاتها والجسم وحده مصدر المساوئ لعدم كماله .

فاذا كان الطحان ماهراً وكان الطحن سيئاً يكون الخلل ناتجاً من الطاحونة لا من الطحان فعندئذٍ لا يصلح الطحن الا باصلاح الطاحونة .

وهكذا الاجسام متى صلحت وتعالجت نقائصها وعاهاتها تصلح الاعمال وتزول المساوئ .

هذا هو اعتقادي يا أخي سردته بكل تجرد واخلاص .

الرسالة الخامسة والعشرون

شرتون في ٣٠ ايلول سنة ١٩٣٠

التجدد في الموت

يا اخي :

ليس الموت في نظري سوى مظهر من مظاهر التجدد لا من مظاهر الفناء . لاني اعتقد بخلود المادة كما اعتقد بخلود النفس .

اني امثل الجسم كالجيش فكما ان الجيش هو مجموع جنود

عديدة هكذا الجسم هو مجموع ذرات كثيرة ولكل مجموع رأس يقوده وقيادة عليا تأمر في تعبئته وتجهيزه كما تأمر في تسريحه .

لا مراء ان الجيش يتلاشى حين يذهب كل جندي في سبيله واما افراد الجند فلا يلحقهم التلاشي . ثم يعود الجيش مجدداً في مجموعه حينما تأمر القيادة في اعادة تعبئته وتجهيزه .

هكذا الجسم يتلاشى في الموت واما ذرّاته فلا تتلاشى بل ينفصل بعضها عن بعض انفصالاً فتذهب كل ذرة في سبيلها ثم تتصل بغيرها فتتجدّد المادة باتصالها كما تندثر بانفصالها

كل شيء في هذا الكون يدل دلالة واضحة على تجدد الحياة في الموت لا على فنائها .

فمن يتأمل في ايام الخريف يرى الحقول مقفرةً والاشجار منتثرة اوراقها والارض عاريةً من نباتها كأنّ الموت اباد معظم احيائها . ولكنها لا تلبث ان تتجدّد نضارتها حيث تعود الطبيعة في الربيع الى انتعاشها وتمتلىء الحقول زهراً ونباتاً والاشجار ثمراً وحياةً .

يا اخي : ان الفكر الانساني يتجدد ايضاً كما تتجدد الطبيعة .

ها ان افكار صبوتي وتخيلات حداثتي قد زالت كلها من الوجود ولكن فكري لم يزل قط بل تجدد فيّ كما تجددت عناصر جسمي .

والان ابتدأت اشعر وانا اقطع المرحلة الاخيرة من مراحل الشباب بان مجرى فكري اخذ يتحول رويداً رويداً سالكاً طريق التجدد .

ها ان فكرة الغرور والهوس والتخيلات الوهمية تقلصت كلها مع تقلّص شبابي وحلت محلها فكرة الحكمة ومحبة البحث عن الحقيقة .

اليس هذا كله يدل دلالة واضحة على ان تفكير الشبان يختلف عن تفكير الاحداث كما ان تفكير المعاصرين يختلف ايضاً عن تفكير الاقدمين .

وما سبب تعديل الشرائع والقوانين في كل جيل سوى نتيجة تجدد الافكار الانسانية .

يا أخي : كل من يراقب الحياة ويلاحظ مقدماتها ونتائجها يرى كل ما في الكون يرتفع في التجدد عن مستواه .

هذه ثمرة العصر الحالي تفضل ثمار القرون الغابرة بلذتها ونضوجها — وحيوان اليوم يعلو الحيوان القديم بقوة غريزته

ومحافظته على كيانه . والانسان الحالي يبدو اكثر رقياً وعلماً واجمل خَلقاً وخُلقاً من انسان العصر الحجري .

قصارى القول ان الطبيعة مع كل احيائها تتجدد في الموت وتكتسب في تجددها قوة وحكمة وتقدماً الى الامام .

وهكذا اعتقد يا اخي بانك اكتسبت في الموت حياةً جديدة وقوة وحكمة وتقدماً .

الرسالة السادسة والعشرون

شرتون في ١٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٠

ما هي حياة الانسان على الارض بالنسبة الى الابدية ــ ما هي الابدية

يا اخي :

ان من يبلغ الثمانين من العمر يُعدّ من كبار المعمّرين من ابناء الجنس البشري مع ان هذا الرقم من السنين الذي يحسبه

بنو البشر طويلًا ولا يعيشه الا القليلون منهم لا يُعد شيئاً بالنسبة الى الابدية .

ان قياس قطرة الماء الى البحر اقرب الى العقل والمنطق من قياس عمر الانسان الى الابدية .

لعمري يحار العقل البشري مهما كان رياضياً ثاقباً حينما يأتي على تحديد الابدية ـ بأيّ شيء يقيسها و كيف يحددها وهي لا حدود لها !

هل تُقاس بالارض والشمس وسائر الكواكب المحدودة !
لا ـ فلا يقاس المحدود باللامحدود والمتناهي باللانهاية .

يا أخي : عبثاً اجهد عقلي كلما فكرت بحل رموز الابدية انها لعمري لغز لا يحل وقضية لا يدرك كنهها الذهن البشري لانها ترمز الى الله الابدي الذي لا تُدرك اسراره ورموزه .

اذن فالابدية في نظري هي ذات الله كما انه تعالى هو الابدية بحذافيرها .

اجل كلما خلوت بنفسي اتساءل : ما هي حياة الانسان على الارض .

فاذا كانت حياته تقتصر على هذه السنين القليلة التي يعيشها كان خيراً له عدم وجوده .

ان اطوار الطفولة والصبوة والشباب ما هي بالحقيقة الا مراحل درس واستفادة وقليلون هم الناس الذين يبلغون الكهولة ويتمتعون بما اكتسبوا من خبرة سنيهم الماضية . وندر منهم من يبلغ الشيخوخة معافىً ويتمتع بحكمة الكهولة .

ان الناس يموتون غالباً دون ان يتمتعوا بحكمتهم ومتى كان الامر هكذا وكانت الحكمة والخبرة تذهبان ضياعاً فما هي نتيجة الحياة ؟

يا اخي : يتراءى لي انه لا شيء يذهب ضياعاً في هذا الوجود .

ان ذرة الرمل وقطرة الماء لا تزولان فكيف تزول اعمال الانسان وحكمته !

اليست هذه الحياة تتركب من روح ومادة والروح هي الجوهر والمادة هي العرض اذ من الجوهر تتولد القوة الادبية ومن المادة تتولد القوة البدنية . فاذا كانت المادة التي هي قشور الحياة وعرضها لا تفنى في الموت بل تتجدد على الدوام فكيف تفنى الحكمة التي هي جوهرها ولبابها .

وفضلاً عن ذلك أليس للوجود غاية ! وهل يا ترى يصل المرء في حياته القصيرة على الارض الى غاية وجوده .

إذن يُخيل اليَّ ان للوجود نظاماً يشبه نظام الجامعات

العلمية او انه يدعى بحق، جامعة الجامعات .

فكما ان الطالب لا يبلغ غـاية علمه في درس سنة واحدة بل عليه ان يواظب على دروسه اعواماً عديدة وان يعلو في معارفه صفاً صفاً الى ان يدرك نهاية علمه . هكذا الانسان لا يبلغ غاية الوجود في هذه الحياة الدنيا بل عليه ان يحيا حياةً جديدة ليتمّم معارفه ويعلو في خبرته صفاً صفاً الى ان يدرك الغاية القصوى من وجوده .

ولهذا السبب تراني اعتقد كل الاعتقاد بـأن خبرة هذه الحياة لا تذهب عبثاً بل بالعكس لها فائدة مزدوجة .

الفائدة الاولى : ما يورثه المرء لابناء جنسه لانه كما يرث الخلف عقار السلف ونضاره هكذا يرث ايضاً علمه واختباره .

والفائدة الثانية : ترجع اليه من حيث يزوّد نفسه حكمة في خبرة دنياه ويزيدها ثقافة ورقياً ويخطو بها في المعرفة خطوة الى الامام في مراحل حياته الباقية .

يا اخي .

ان هذه الحياة العالمية ليست في نظري كل الحياة بل تمثل فقط مشهداً من مشاهدها ودوراً من ادوارها واما الحياة فاني اتمثلها ابديةً كالابدية .

الرسالة السابعة والعشرون

بيروت في اول تشرين الثاني سنة ١٩٣٠

القوة ضعف والضعف قوة

يا اخي :

منذ بضعة ايام ذهبت الى البرية مصطحباً معي ولدي رفيق الذي يبلغ عمره ثلاثة اعوام .

فجلست واياه نستظل شجرة من اشجار البلوط الباسقة . واذا بثمرة بلوط وقعت امامي فتناولتها ثم اخذت اقلبها مفكراً في هذه الشجرة العاتية القوية وفي هذه البلوطة الضعيفة الصغيرة .

فنجم من اشغال ذهني وشدة تفكيري وصولي الى هذه النتيجة :

اذا كانت هذه الشجرة العاتية اللاحقة قلب الارض في جذوعها و كبد الفضاء في اغصانها وفروعها تمثل الان امام عيني القوة والجبروت فماذا تختزن في قلبها لتمثله في الغد .

انهـا ولا شك تصرف قواهـا ولا تختزن في داخلها الا الضعف والتلاشي .

واما هذه البلوطة الصغيرة التي تمثل الضعف اليوم فهي تخزن في قلبها القوة للغد لأنها ستصبح شجرة عظيمة في حين ان الشجرة القوية اليوم ستندثر وتمسي أثراً بعد عين .

هكذا انا وولدي الان نسير في طريق الحيـاة كما تسير البلوطة وشجرة البلوط .

هو كالبلوطة يمثل اليوم الضعف ويخزن القوة وانا كالشجرة امثل القوة واخزن الضعف .

اصرف قواي في مرور ايامي وولدي يزداد بمرور الايام قوة ونشـاطاً وسيبقى هكذا الى ان يبلغ مكاني فعندئذ تنقلب القوة التي اختزنها فتصبح بمرور السنين ضعفاً كما اصبح الضعف قوة .

اني ارى الامم ايضاً تسير في حياة مجموعها سير الافراد في قوتهم وضعفهم . فالشعب الذي مثل القوة في غابره اصبح يمثل الضعف في حاضره . ولهذا السبب فلتفقه الامم القوية اليوم أنها تصرف قواها في حين ان الامم الحالية الضعيفة فهي تختزن القوة للغد .

يا اخي : كل من يلاحظ الطبيعة ويتعمق في درس نظامها العجيب تبدو له جلياً هذه النتيجة الراهنة .

ان الضعف يولد القوة كما ان القوة تولد الضعف ـ والموت يولد الحياة كما ان الحياة تولد الموت .

ان السيد المسيح الذي احتمل الآلام والصلب وازدراء الناس به واحتقارهم له لم ينتصر على العالم الا بضعفه .

وغاندي الهند يحمل اليوم صليبه ويحارب بضعفه الامة الانكليزية التي هي اقوى امم الارض واشدها صولة وبأساً وسينتصر عاجلاً او اجلاً على اعداء امته كما انتصر المسيح المصلوب على اعداء الحق .

ان المستقبل يبسم دائماً للقوة العادلة المستترة وراء الضعف لا للضعف الكائن وراء القوة الظالمة .

هذه هي فلسفة الحياة التي تلقيها الطبيعة على طلابها المتعمقين في درسها والباحثين في اسرارها وخفاياها .



الرسالة الثامنة والعشرون

بيروت في ٧ ت٢ سنة ١٩٣٠

العدل العام

يا اخي :

تراني كلما فكرت في العدل العام وفي كيان الجنس البشري يبدو لي لاول وهلة انه يستحيل على المرء مهما كان كريم الاخلاق فاضلاً ان يكون عادلاً عدلاً عاماً . لان العدل العام يوجب البعد عن الاذى وعدم الاعتداء .

ولهذا السبب تراني دائماً اتساءل . كيف اكون عادلاً في هذا الكون وقادراً ان احفظ كياني مازال حفظ الكيان يتعلق بالاعتداء على كيان الغير !

كيف اعدل ما زلت افتك بالحيوان الامين لأقتات بلحمه واتنعم بجلده !

ماذا عمل الحيوان ليستحق هذه العقوبة ؟

واذا امتنعت عن اكل اللحوم وعفوت عن الحيوان كما

تعفو البراهمة واخذت اتغذّى بالاثمار والنبات فقط .أفلا اتساءل ايضاً : بأي حق افتك بنبات الارض واستحله طعاماً !

كيف اعدل ما زلت بلا سبب استأصل كيان الثمر لاحفظ كياني !

واذا عاهدت نفسي الاّ اعتدي على الحيوان ولا على النبات حفظاً لناموس العدل العام فكيف اعيش !

هل اقدر ان احيا بلا غذاء ؟ لا

هل احصل على غذائي دون ان افتك بغيري ؟ لا

اذن ما العمل لاحفظ العدل و كياني ؟

ان العهد القديم ينص في سفر التكوين ان الله تعالى خلق الانسان على صورته ومثاله وسلّطه على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض . يضحّي منها بما يشاء وفقاً لحاجاته وحفظاً لسلامته .

ولكن المطلع على ناموس الطبيعة والمفكر تفكيراً صائباً في خفايا الكون واسراره يبدو له جلياً ان المبدع لم يميز في خلقه الوجود انساناً عن حيوان ولا حيوان عن نبات لانه تعالى سلك طريق العدل العام في السنّة التي استنها لجميع مخلوقاته الا وهي سنّة الجهاد وكل من جاهد ساد .

ان هذه النتيجة التي استخلصتها من درس الكون تناقض الكتاب ولكنها اقرب الى عدل الله في مخلوقاته . وفضلاً عن ذلك ان ناموس الطبيعة يؤيدها . وما ناموس الطبيعة سوى ناموس الاخذ والعطاء الذي يعم الكائنات بأسرها .

وهذا الناموس يُدعى بحق ناموس العدل العام لان كل مافي الوجود يأخذ ويعطي .

ان الارض تستمد نورها من الشمس ثم تمد غيرها بالمثل قوة ونوراً وهكذا الاحياء جميعهم يأخذون ويعطون . فكما يأخذ المرء كساءه وطعامه من الحيوان والنبات هكذا يأتي يوم يعطي كل ما يأخذه اذ يموت فيصبح جثمانه طعاماً لنبات الارض وحشراتها .

يا اخي : هذه هي حياة الانسان المادية واما حياته الادبية فهو حرٌ بها فاذا شاء كان فاضلاً وعادلاً واذا لم يشأ كان من العابثين بالعدالة والفضيلة .

ولكنه مهما عاش طويلاً وتمادى بالظلم وعبث بالحق فهل يدوم على الارض جوره وعدوانه ؟ لا لان يد الموت ستطاله والعدل العام يقتص منه عاجلاً كان ذلك ام آجلاً .

هذا هو ناموس الوجود ناموس العدل الالهي .

الرسالة التاسعة والعشرون

بيروت في ١٢ ت٢ سنة ١٩٣٠

وحدة الحياة والكائنات

يا اخي :

ان الاعتقاد بوحدة الله يوحي اليّ الاعتقاد بوحدة الحياة والكائنات .

فكما ان الشجرة تتعدّد فروعها وتكثر اغصانها مع كونها واحدة فقط بأصلها هكذا يبدو لي ان شجرة الحياة واحدة بجوهرها مهما تنوعت احياء الارض وتعددت اجناسهم .

ولكن كيف أومن بان اصل الحياة واحد في الانسان والحيوان والنبات مع ما في هؤلاء الاحياء من الاختلاف البائن في الجنس والعنصر والنزعة والغرائز .

كيف إذن تشعبت الحياة الى انواع لا تحصى واجناس لا تعدّ . او بالاحرى كيف اوفق ايضاً بين حياة البعوض والحشرات المتنوعة وحياة الانسان او بين حياة الطير وحياة

النبات او بين حياة البهائم وحياة الاسماك لأصل الى الضالة المنشودة الا وهي وحدة شجرة الحياة .

يقول علماء البيولوجيا ان اصل الحياة هي الخلية او البروتوبلاسما او ما هو اصغر منها وهذا قولٌ لا اشك في صحته لانه يلوح لي ان مظهر الحياة كان واحداً في الاصل لان الخلايا عاشت دهراً طويلاً منفصلة عن بعضها الى ان قيّض لها ان تتحد بعد جهاد طويل . فنجم من اتحادها تشعب مظاهر الحياة ووجود الاجناس . لان الخلايا لم تتحد على شكلٍ واحد بل على اشكال متنوعة وهذا هو السبب في تنوع احياء الارض

وفضلاً عن ذلك يخيل اليّ ان الانواع الحيّة لم تظهر دفعة واحدة على الارض بل تدريجاً . لانه يستحيل على الخلايا بان تصنع الحشرة البسيطة وذوات الثدي في آن واحد .

ان الانسان الذي يعد من اكمل مركبات الخلايا ومن افضل الانواع الحية يدلنا في تاريخه وتطورات حياته على انه لم ينتقل دفعةً واحدةً من سكنى الكهوف والمغاور الى مناطحات السحاب والقصور الشاهقة الحديثة . بل جاهد طيلة آلاف من السنين حتى وصل الى ما وصل اليه من العلم والفن والهندسة .

لقد اخذ يتدرج في صناعة البناء كما في غيرها من الصناعات والمعارف تدرّجاً بطيئاً ولم يصل الى ابنيته الحديثة الاّ بعد ان جاهد خلال قرون عديدة واختبر من نماذج البيوت انواعاً لا تحصى واشكالاً لاتعد .

وبما انه مفطور منذ وجوده على الجهاد في تحسين حياته فهو لا ينفك ساعياً في طلب الاحسن وسيتقدم ولاشك مع الزمن تقدماً مطرداً في علومه وصناعاته وسائر فنونه .

هكذا اعتقد ان الخلايا لم تحدث في بدء اتحادها الا بعض الانواع الصغيرة المركبة من خليتين او اكثر قليلاً . فنجم من هذا الاتحاد المصغر وجود بعض النبات ثم الهوام والحشرات على اختلاف انواعها . ثم زاد مع الزمن اتحاد الخلايا فوجدت الاسماك والحيوانات الزاحفة وغيرها .

ثم جاهدت خلال اجيال في تحسين انواعها فاحدثت بعد عناء جزيل ودهر طويل لا يعلم مقداره غير الله ذوات الثدي ثم الانسان

وبما ان الخلايا مفطورة منذ الوجود على حب الاحسن فهي لم تزل تجاهد في تحسين انواعها وستجاهد الى النهاية .

لهذا السبب يلوح لي ان الاجناس الحيّة الحالية لا تدوم ابد الدهر على شكلها بل بعضها ينقرض كما انقرضت الزحافات

الكبرى والبعض آلاخر يتحول من شكل الى شكل . كما انه من الممكن لا بل من الامر الراهن ان تحدث الخلايا في المستقبل من انواع الاحياء اجناساً جديدة لا عهد لنا بها لأنها دائمًا تفتش في جهادها وطرق تجمعها على اختلاق جديد كما يفتش الانسان في جهاده المتواصل على خلق صناعة جديدة واختراع جديد .

وما الانسان في هيكله سوى وليد الخلية وصنيعها كما ان الخلية بحد ذاتها تمثل لنا وحدة الحياة ومظهرها الاول في الوجود .

فاذا كان الغصن هو فرع من الشجرة والشجرة هي فرع من الغاب والغاب هي قطعة من الارض والارض هي جزء من الكون والكون هو من الله . افلا يكون اصل الغصن والشجرة والغاب والارض والكون واحداً فقط !

وهكذا اصل الحياة والكائنات واحد ايضاً مهما تنوعت الاحياء وتعدّدت الشموس والكواكب .

يا اخي :

اني اعترف الان امام الله وامام نفسك الخالدة بان هذه المباحث العميقة التي خضتها ليست هي من خصائص الاديب بل من خصائص العلماء .

لقد تطفلت وايم الحق على موائدها ولكني احب ان اتحرى الحقيقة وان ابحث عنها ولا بأس اذا عثرت بعض العثرات في طريقي لان العثرة في طلب المعرفة لهي عندي افضل من الجمود .

والان ان كنت قد عجزت عن ادراك كيفية وجود الانواع وعجز علماء العصر العشرين ايضاً فهذا لايعني ان الجنس البشري لا يكشف القناع في المستقبل عن اسرار تشعب الحياة ولا يمنعني ايضاً من ان اعتقد بان مصدر الحياة والكائنات واحد وهو الله .



الرسالة الثلاثون

بيروت في ١٧ ت٢ سنة ١٩٣٠

الانجيل

يا اخي :

كان للانجيل المقام الاول في مؤآساتي على فقدك وهو الذي قواني على احتمال خطبك بصبر جميل .

ان الآية القائلة : تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم حولتني بكليتي شطر الانجيل الذي اتخذته سميري في اشد ايامي يأساً واكثر ساعاتي شؤماً .

وبينما كنت امعن في درسه وفي تفهّم آياته العجيبة وصلت الى الكلمة التي قالها المسيح وهو على الصليب :

يا أبتاه اغفر لهم لانهم لا يدرون ماذا يفعلون : فشعرت عند تلاوتها كأنّ المسيح العظيم ظهر امامي حاملاً صليبه واوجاعه المبرّحة واخذ يُلقي عليّ امثولة الغفران والرحمة والمحبة . فوقفت ذاهلاً امام هذه التضحية النادرة المثال

وتجاه هذا العفو الكامل .

ثم عاهدت نفسي بان اغفر لكل من يسيء الي واحسن اليه قدر أمكاني اسوة بالمسيح العظيم الذي اراحني في انجيله من احزاني وانتشلني من وهدة بلواي لانه نفخ في حب التضحية واحتمال المكاره .

الرسالة الواحدة والثلاثون

بيروت في ٢٥ ت٢ سنة ١٩٣٠

انا سعيد لماذا تبكي

يا اخي :

كتب الي احد الانسباء الاعزاء عن عاصمة المكسيك ما يلي :

نهار البارح زرت قبر المرحوم طانيوس با كليلين من الزهر وما وقفت حيال الجدث حتى ذرفت عبرتين حارتين فاذا بقوة

خارقة العادة جذبتني الى الوراء وبهمس ارق من النسيم يقول لي : انا سعيد لماذا تبكي .

هذه حقيقة ارسلها اليك وتقدر ان تعتمد عليها وتتعزى.

اجل انت سعيد يا اخي وليس عندي ادنى شك في سعادتك لكني كلما فكرت بهذه العبارة التي همستها الى نسيبك يخامرني الشك ويتملكني الريب بأنك قائلها .

ولهذا السبب جئت اسألك : احقيقة نطقت روحك بها او ان النسيب الذي يعتقد بك الصلاح الكلي سمع صوت ضميره لا صوت روحك يهمس اليه خبر سعادتك . والسعادة ميراث الصالحين .

اما انا فقد حاولت مراراً ان اتصل بنفسك ولم استطع فاذا كنت حقيقة قد خاطبت نسيبك فلماذا لم تخاطب اخاك ؟

واذا كنت اقمت النسيب وسيطاً بينك وبيني فأني اقر واعترف امامك باني احب النسيب ولكني لا احب الوسطاء .



الرسالة الثانية والثلاثون

بيروت في ٥ كانون الاول سنة ١٩٣٠

مناجاة الارواح

يا اخي:

انا منذ وفاتك ابحث في عقيدة مناجاة الارواح وحتى الان لم ازل مرتاباً في صحة هذه العقيدة.

لقد طالعت مجمل ما كتبه العلماء الروحيون في هذا الموضوع امثال كونان دويل واوليفر لودج وفلامريون وغيرهم الذين يعدون من جهابذة العلماء وفحول الادباء وتلوت بعض الرسائل الروحية التي يعتقد بها الروحيون انها بعثت من عالم الروح الى عالم المادة.

فشعرت في خلال تلاوتها بتعزية دخلت في نفسي ولكني لم اشعر بايمان راسخ.

يا اخي: انا كتوما الرسول لا اصدق دون ان انظر بعيني والمس بيدي. فهل لك قدرة بأن تعمل كالمسيح الذي يقول

عنه الانجيل انه ظهر لتوما وقال له : « هات اصبعك الى ههنا وعاين يديّ وهات يدك وضعها في جنبي ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً . »

فهل لك بأن تريني نفسك ولو مرة واحدة كما ارى المسيح نفسه لتلميذه وان تدلي اليّ عن كيفية مناجاتك .

يا اخي : اني اعتقد اعتقاداً تاماً بأن الجسر الذي يعقد ما بين العالمين الروحي والمادي عقداً حقيقياً واضحاً لم يتم العقل البشري بناءه حتى الساعة . انه لعمري لم يزل جسراً خيالياً مرسوماً على تلافيف الادمغة البشرية لا جسراً حقيقياً موجوداً تعبره الارواح من كراتها والماديون من ارضهم فيتكالمون ويتناجون .

فهل لك الان بأن ترشدني الى بناء هذا الجسر لأعبر اليك واكتشف للناس حقيقة العالم الروحي وطريق مناجاته !



الرسالة الثالثة والثلاثون

بيروت في ١٠ ك١ سنة ١٩٣٠

جنازات

يا اخي :

ذهبت البارحة لزيارة صديق مريض في احد المستشفيات فشاهدت هناك جنيناً اجهضته امه في الشهر السابع .

فقلت في نفسي : أفما كان الخير لهذا الجنين عدم وجوده – اذ ما هي الحكمة من وجوده .

وبينما انا افكر في هذا الامر خرجت الى الشارع فنظرت جنازة طفل صغير قيل لي انه مات بعد ولادته ببضع دقائق. لقد اشرقت شمس حياته كالبرق وغربت كالبرق .

فما هي الحكمة من شروقها وغروبها ؟

ثم سرت في طريقي فاذا بي امام جنازة طفل بلغ السنة الاولى من عمره تعلم كلمة واحدة نطق بها ومات .

فما هي غاية الحياة من هذه الكلمة ؟

ثم واصلت السير الى ان بلغت منتهى الشارع فاصطدمت هناك باربع جنازات واحدة تلو اخرى .

جنازة صبيّ بلغ السابعة من عمره كان يرتاد المدرسة ليتعلم اصول القراءة والكتابة .

وجنازة مراهق كان يجاهد في تحصيل العلم فمات دون نيل مناه .

وجنازة شاب في عامه العشرين دهمه الموت بعد ان اتم دروسه ونال شهادته العلمية فزهقت روحه وهو مشبعٌ بأمل الحياة واحلام الشباب .

وجنازة رجل احرز ثروة طائلة بجده واجتهاده ثم مات في روعة شبابه وكمال نشاطه دون ان يتنعم بماله ويستفيد من اتعابه .

ما هي الحكمة الخفية التي قضت على الجنين في احشاء امه وعلى الطفل إثر ولادته وعلى الصبيّ والمراهق والرجل البالغ الشباب ؟

ما هي غاية وجودهم ما داموا لم يفسحوا مجالاً للعمل وللانتفاع من العمل ؟

. . .

ان الآية القائلة : (ما كُتب قد كُتب) لا تعني عالم الانسان

وحده بل عالمي الحيوان والنبات ايضاً .

فكم من حيوان يموت في احشاء امه او إثر ولادته وحيوان يعيش الى ان يبلغ نهاية عمره .

وكم من زهرة تذوي قبل تفتيح اكمامها وزهرة تعيش الى ان تبلغ هرمها .

كيف اعلل سبب الموت في بدء الحياة وفي زهوتها !

هل اعلل ذلك في الصلاح والطلاح ؟ اعني بأن اعتقد بأنه لو عاش الذي كتب له الموت في اوائل حياته لكان من الآثمين : لا – لا اقبل هذا التعليل ما زلت اشاهد كثيرين من الاشرار عاشوا حتى الهرم بينما غيرهم من الاخيار لم يبلغوا الكهولة .

وفضلاً عن ذلك فالشمس تشرق على الاخيار والاشرار بالسواء .

هل اعتقد اذن بما ارتآه شاعر الجاهلية وحكيمها زهير ابن ابي سلمى حيث يقول في معلقته المشهورة

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

فاذا كان الامر هكذا يكون العرض هو سبب المنايا

وهو الذي يفعل فعله الذريع في جميع الاحياء على اختلاف اجناسهم واعمارهم .

فكما يجرف السيل العرم كل ما يصادفه في طريقه صغيراً كان ذلك او كبيراً هكذا يبيد العرض كل شيء في سبيله .

ولكن اليس لهذا العرض نظام يتمشّى عليه كما تتمشّى الكائنات على انظمتها ؟

اوأنه فوضوي ثار منذ البدء على قوانين الكون ولم يزل ثائراً لا يقبل نظاماً يسير كيفما يشاء ويخبط في سيره خبط عشواء

. . .

يا أخي : لقد اجهدت عقلي باطلاً في حل قضية الحياة لاني لم اصل عن طريق العلم الى تفهم هذه الحكمة الخفيّة التي تأمر بولادة حيّ ثم تقضي عليه قبل اوانه .

ولهذا السبب تركت العلم جانباً واخذت استنجد مخيلتي لحل هذه المعضلة التي استعصت على ذهني .

والخيال دائماً يسبق الواقع كما ان الواقع يتولد من الخيال .

ان مخيلتي تملي عليّ الان بأن هذه الحياة ليست هي بالواقع سوى روايات متسلسلة تتمثل على مسرح اللانهاية . ولكل رواية ادوارها وفصولها ومشاهدها المتنوعة . وعلى كل حيّ

ان يتقن تمثيل دوره جد الاتقان .

ومن لم يحسن تمثيل مشهد او فصل من دوره يُعاد الى تمثيله الى ان يحسنه .

ولهذا السبب يبدو لي ان الذي جاء هذا الوجود ومات جنيناً او طفلاً او صبياً او مراهقاً او شاباً او رجلاً ولم يتقن تمثيل دوره يُعـاد الى تمثيله في العـالم الثاني او في غيره من العوالم .

يا اخي وهذا في اعتقادي ما عناه السيد المسيح بقوله :

عند أبي منازل كثيرة .



الرسالة الرابعة والثلاثون

بيروت في ٢٥ ك١ سنة ١٩٣٠

الميلاد

يا اخي :

في مثل هـذا اليوم منذ الف وتسعمائة واحدى وثلاثين سنة وُلد السيد المسيح اعظم عظماء الارض .

ان المسيحيين كافة يقدسون هـذا اليوم الذي يذكرهم بولادة المسيح ذلك الاشتراكي العظيم الذي ابصر النور في مزود البقر كالمعدمين ومات على الصليب كالاشقياء .

لقد تأملت اليوم كثيراً في ولادته وفي حياته على الارض كيف عاش ومات فقيراً معدماً ولم يكن فقره مانعاً له من ان يتسلط على العالم في تعاليمه وروحانياته .

فعندئذ قلت في نفسي : لقد علمنـا المسيح في ذاته ان النفس اذا كانت نيّرة لا يقف الفقر في سبيلها فهي تضيء على العالم من اكواخها المظلمة وقت تكون الانفس اللئيمة خابطة

في ظلمة آثامها ولو كانت تسكن افخم القصور واسطعها نوراً .

ان السرّ في السكان لا في المكان

. . .

يا اخي : في هذا العيد عيد الميلاد المجيد تأملت بك كثيراً وتذكرتك كثيراً .

تمثل امامي الماضي البعيد فتذكرت ولادتك وايام صغرك وكيف كنا في مثل هذا اليوم نصرف العيد معاً في البيت الابوي بين عطف الوالدين وحنان الشقيقتين .

اتذكر الان – ويالها من ذكرى عذبة ولكنها موجعة كيف كنت تستفيق في صباح العيد مستقبلاً اطباق الحلوى وانواع اللعب والدمى ـ تبسم للحياة وتقفز في افناء البيت صاخباً لاعباً منتقلاً من حضن ابيك الى صدر امك ـ الى اخيك ـ الى شقيقتيك ـ الى مغارة العيد التي كانت امك تصنعها لك لتمثل امامك مولد المخلص .

ولا ازال اذكر ان مغارة العيد كانت بالحقيقة بهجة عيدك لأنها كانت تملأ قلبك فرحاً وسروراً .

والان لقد عاد العيد ولم تعد فاخذت أناجيك متسائلاً : اين انت يا اخي ؟ واين حداثتك ؟ واين امك ؟ واين مغارة عيدك ؟

الرسالة الخامسة والثلاثون

بيروت في ٣ ك٢ سنة ١٩٣١

من حوادث الحياة

الكاهن والرياضة الروحية

يا اخي :

زارني منذ مدة كاهن ظهر لي من حديثه انه يتاجر بدينه ليكسب دنياه وما اكثر الكهنة الذين هم في هذا العصر على شاكلته .

ابتدأ يكلمني متبجحاً بغزارة علومه ومعارفه ثم سألني عما اذا كنت سمعت بعض مواعظه . فأجبته سلباً فعندئذٍ قال لي : اتعجّب كيف لم تسمع مواعظي وشهرتي تغمر البلاد من اقصاها الى اقصاها . ومنذ مدةٍ دُعيت في احدى الرياضات الروحية لألقي على المؤمنين عظة من مواعظي البليغة فخلبت البابهم في تفنني وطلاقة لساني وملكت قلوبهم بفصاحتي وبياني .

فأجبته ان مواعظك مهما كانت بليغةً لا تفيد المؤمنين

ولا تؤثر في نفسياتهم مازلتَ تطلب من ورائها الشهرة الدنيوية لا اصلاح الناس . وقد قيل حسب نياتكم ترزقون .

فتأثر الكاهن من كلامي ثم اخذ يجادلني مفصحاً لي عن فائدة مواعظه مجادلة عقيمة دلت على صلفه وغروره ـ فأجبته بالتي هي احسن ـ فلم يرعو . فمنذئذ قلت له : ياحضرة المحترم اسمح لي ان ألقي على مسامعك شيئاً من رياضتي الروحية . أنها لعمري رياضة عملية اكثر منها قولية لأنها لا تقوم بتكرار الصلوات كرياضتك ولا بالتبجح في معارفي وتقواي كتبجحك .

في كل صباح ادخل الى مكتبي واجيل طرفي في رسم اخي الذي فارق الحياة في روعة شبابه فاتأمل به والكآبة تغمر نفسي . ثم اتأمل في الموت الذي انتزعه مني وهو مفعم بأمل الحياة واحلام الشباب .

هذا الموت الذي يلج بيت الصعلوك كما يلج امنع الحصون دون ان يطرق لها باباً فيفتك بالملوك على عروشهم كما يُردي البائسين في اكواخهم .

هذا الموت الذي لا يُغلب يُنذرني بان حياتي مهما طال امدها واقعة ولا محالة في يده .

هذا الموت هو الذي نزع مني الطمع والغرور والكبرياء والحسد والنميمة والبغضاء .

هذا الموت الذي اتمثّله امامي في رسم اخي هو الذي يعلمني دائماً أن اكون صالحاً وصبوراً على المكاره وغافراً للناس مساوئهم وزلاّتهم .

لعمر الحق ان اخي افادني افادةً جلّى في حياته وموته . فكما كان لي في حياته سنداً وعوناً هكذا اصبح لي بعد موته عظة وعبرة .

. . .

يا اخي : هذه حادثة جرت معي منذ بضعة ايام سردتها لك وسأعلمك بغيرها في رسائلي الاتية لتحيط ببعض حوادث الحياة وما اكثرها .



الرسالة السادسة والثلاثون

بيروت في ٧ ك٢ سنة ١٩٣١

من حوادث الحياة

المجازر البشرية

يا اخي :

جلست البارحة الى منضدتي واخذت اطالع كتاباً يبحث في التاريخ القديم . فلم تقع عيني عندما كنت اقلّب صفحاته الأعلى حوادث المجازر البشرية والحروب الهائلة التي كانت تثيرها الامم بعضها على بعض .

فعندئذ أخذت أتأمل في حياة الانسان على الارض منذ فجر التاريخ حتى الان فظهر لي ان حياته كانت منذ البدء ولم تزل قائمة على النزاع والتطاحن والمجازر الدامية .

فكما قتل قايين اخاه هكذا لم نزل في هذا العصر الذي يُدعى عصر العلم والتمدن نقتل بعضنا بعضاً وننتازع حتى على ابسط الامور واتفه الاشياء .

منذ مدة روت الجرائد خبر جناية قتل وقعت في بيروت من اجل كلمة بذيئة .

وروت خبر جناية قتل اخرى ارتكبها شقيٌ لأجل سلب بعض دريهمات .

وذكرت جناية سالت فيها الدماء لاجل انتخاب مختار في احدى القرى اللبنانية .

وكم يجري في لبنان وفي جميع انحاء العالم من امثال هذه الحوادث التافهة التي تؤدي غالباً الى المجازر الدامية .

ان الخلق الانساني المؤسس على الغريزة هو لعمري مصدر الخصام والتنازع لانه دائماً يسبق العقل في احكامه .

فلو كان كل مرء قبل ان يستسلم الى الغضب تجاه الامر الذي يعتقد بضرره او أذاه ينتظر عقله ليصدر الحكم على خصمه لكانت وطأة المنازعات التي تستعر نارها بين الافراد والجماعات تخمد جذوتها وقد تتلاشى مع الزمن وتصبح اثراً بعد عين .

ولكن لسوء حظ الانسان ان العقل لم يسيطر بعد على مقدرات الطبيعة البشرية .

ولهذا السبب ما برح الناس كما تعهدهم يا اخي يتنازعون ويتخاصمون ويتقاتلون . إنهم يناصرون الموت على افناء بعضهم

بعضاً وهم لو فطنوا لاشغلوا أذهانهم في محاربته لا في مناصرته لأن الموت قويّ لا يحتاج الى نصير .

الرسالة السابعة والثلاثون

بيروت في ١٢ ك٢ سنة ١٩٣١

من حوادث الحياة

المال والشيخ الهرم

يا اخي :

لقد ابدع المسيح بقوله : لا تعبدوا ربّين الله والمال . لان المال هو الضالة الوحيدة التي تنشدها جميع الامم من اقصى المعمور الى اقصاه . وهو الذي يشغل عقول الناس منذ حداثتهم الى يوم وفاتهم .

منذ بضعة ايام ذهبت الى مكتب احد الاغنياء لقضاء بعض الحاجات وكان الجو ممطراً والبرد قارساً . فشاهدت هناك شيخاً

طاعناً في السن جالساً الى منضدته وسعاله متواصل وهو لا يبالي . فبعد ان قضيت حاجتي اخذت اتجاذب واياه اطراف الاحاديث وكان ذلك طبعاً عن التجارة والصناعة وكل ما يؤدي الى كسب المال . فسألته عن مبلغ ثروته فاجاب أنها تزيد على الثلاثمائة الف ليرة ذهباً جمعها كلها بجدّه وعرق جبينه .

فعندئذٍ قلت له : انت بغنىً عن المجيء الى مكتبك في مثل هذا اليوم البارد لانك شيخ والشيوخ يتأثرون من البرد والمطر تأثراً عظيماً . وفضلاً عن ذلك انت ذو مال وافر وعندك رهط من الكتاب والمستخدمين الذين يقومون مقامك .

فاجاب ان الحق بجانبك من حيث اشتداد البرد وتأثيره عليّ ولكن الشغل مع وفرة هؤلاء الكتاب والمستخدمين لا يستغني عني .

فأجبته نعم يستغني الشغل عنك ولا شيء في هذا الكون لا يستغنى عنه كما استغنى سابقاً عن كبار رجال الاعمال والمتمولين الذين قضوا نحبهم وقام غيرهم مقامهم .

فاجاب : قد يكون الامر كذلك ولكني احب المال واضحّي بكل شيء في سبيله — لان المال هو كل شيء .

وبينما نحن في هذا الحديث دخلت امرأة تطلب منه مالاً

لقاء رهن بيتها فاجابها على سؤلها ولكن بفائدة باهظة. فتضرعت اليه قائلة له أنها ارملة ام سبعة اطفال ولم يترك زوجها غير هذا البيت ـ قالت : وانت غني جداً وعندك متاجر كثيرة تدر عليك ارباحاً طائلة فاذا رحمتني بالفائدة تكون قد عملت خيراً مع صغار ايتام يستحقون الرحمة والمساعدة. فاجابها: ان الشغل يقضي عليّ بطلب هذه الفائدة واما الرحمة فلا دخل لها بالشغل.

فعندئذ قبلت المرأة بشروطه مرغمة لانها بحاجة الى تغذية صغارها وامضت له صك الرهن واخذت بعض المال الذي يلحقها وتركت البعض الاخر عنده دون ان تسأله عن فائدة ما وذهبت في سبيلها.

فسألته كم تقيدون للمرأة فائدة على المال الذي أبقته عندكم فاجاب لا شيء. لانها اودعته عندنا بصفة امانة وعلى الامانات نأخذ ولا ندفع واما هي فمعفاة من الدفع رحمة بصغارها.

فأجبته: ليس المال هو كل شيء. كما تعهده واما الرحمة التي عملتها فهي ليست رحمة للمرأة بل لنفسك لانها تعود عليك بالفائدة لا عليها.

يا اخي : هذا هو الحديث الذي جرى لي البارحة مع شيخ

بلغ من العمر عتياً ولم يزل متمسكاً بدنياه تمسكاً شديداً .

نظرته ما برح رغم الثمانين يجدّ ويكدّ وراء جمع المال ولا يعرف للرحمة سبيلاً .

لقد اعتقد كما يعتقد معظم البشر بأن المال هو كل شيء في هذا العالم — مع ان في العالم فضائل جمة ومعارف عديدة يجب على الانسان ان يسعى لاكتسابها كما يسعى لاكتساب المال .

ان الحلم والكرم والاحسان والرحمة والتواضع والشجاعة وحسن الصفات وحسن الاخلاق والعلوم والفنون والصناعات المختلفة كل تلك امور مهمة في هذا الكون يجب على المرء ان يجدّ وراءها كما يجد وراء المال .

ولكن من اغرب حوادث الحياة ما لاحظته في معظم الشيوخ الذين كلما ازدادوا هرماً يزدادون تعلقاً في حطام الدنيا كانهم خالدون فيها او كأن المال يُبطرهم ويعمي بصائرهم فيمسون لا يؤمنون بالموت الذي سينزل بهم وينزع عنهم كل ما ملكوا من عقار ونضار .

يا اخي : ان معظم الناس يمشون بخطوات واسعة نحو القبر ولكنهم لا يدرون أنهم على باب القبر .

واما انا فكلما نظرت الى رسمك وتأملت بك وبالموت

الذي انتزعك مني اسمع همساً يناجيني من داخل رسمك قائلاً لي :

ان المال جميل يا اخي ولكن العلم والفضيلة هما اكثر منه جمالاً .

الرسالة الثامنة والثلاثون

بيروت في ٢٦ ك٢ سنة ١٩٣١

من حوادث الحياة

المناصب العالية والغرور بالنفس

يا اخي :

ان الغرور بالنفس الذي يتولد عادة في صدور الرجال الذين يشغلون المناصب العالية يدل دلالة واضحة على ان هؤلاء الرجال ولو قادهم الحظ لتسنم اعلى المراكز فانهم بالحقيقة لم يخلقوا لها .

ذلك ما لاحظته واختبرته بنفسي عند احتكاكي ببعض ذوي المقامات العالية من رجال الدنيا والدين الذين برهنوا في اعمالهم وتصرفهم بأنهم غير اكفاء للقيام بعبء مناصبهم الخطيرة عرفت رجلاً [١] معرفة صحيحة قبل تسنمه احدى الوظائف المهمة وبعدها .

وعرفت رجل دين [٢] قبل سيامتهِ اسقفاً وبعدها وبما انني خبرت الرجلين خبرة تامة في حالتيهما الماضية والحاضرة . جئت اسرد الان ماذا كان وقع الوظيفة عليهما .

كان الاول لطيفاً متواضعاً فاصبح بعد الوظيفة متعجرفاً شامخاً .

كان يحترم الناس ويصغي لكلامهم فاصبح اليوم يحتقرهم ويزدري بهم .

كان يعرف نفسه نوعاً فاصبح يجهلها جهلاً تاماً .

كان يعلم شيئاً فاصبح بعد الوظيفة يعتقد انه يعلم كل شيء . ولكنه لو عاد الى رشده قليلاً وتدبر نفسه لفطن انه

(١) لا اعني رجلاً مخصوصاً بل كل من يغتر بنفسه ويحتقر الاخرين .

(٢) لا اعني اسقفاً مخصوصاً من الاساقفة بل كل من يغتر بنفسه من رجال الدين على اختلاف الطوائف والمذاهب

كان شيئـاً قبل الوظيفة واما اليوم فقد افقده الغرور الشيء الذي كانه واصبح لا شيء .

واما رجل الدين فكان وهو كاهن يعتقد نفسه انه من جبلة البشر فاصبح وهو اسقف يعتقد نفسه انه صار من جبلة الالهة .

كان يقر بالخطأ الذي يرتكبه فاصبح بعد الاسقفية معصوماً من الخطأ .

كان يطرق ابواب الفقراء ويتحدَّث اليهم فـاصبح بعد الاسقفية لا يطرق الا ابواب الاغنياء والزعماء .

كان رجل دين فقط فاصبح بعد الاسقفية رجل الدنيا والدين .

كان يعتقد ان لا سلطة له غير سلطته الروحية ضمن جدران كنيسته فاصبح بعد الاسقفية يعتقد ان كل السلطات بيده .

كان شيئاً وهو كاهن واما اليوم فلو تبصَّر قليلاً في كثرة هفواته وغروره واعتداده بنفسه لظهر له جلياً ان الاسقفية التي ولدَّت الغرور في ذهنه افقدته الشيء الذي كان متحلياً به وهو كاهن واصبح لا شيء . لانه لم يخلق ليكون اسقفاً بل كاهناً فقط .

ان المنصب الرفيع يفعل في صاحبه ماتفعله الثمرة في الشجرة .

فكما تعلن الثمرة جودة اصل الشجرة او رداءته هكذا المنصب الخطير يعلن كفـاية الرجل وحسن أرومته واخلاصه

او عدم كفايته وصلفه وفظاظة طباعه .

يا اخي : تراني الان كلما نظرت بعين العقل والبصيرة كيف تتوزع على الناس خيرات الارض ومراكزها الادبية والمادية يظهر لي جلياً ان الغبن الفاحش يلحق بعض الناس بلا سبب موجب كما تلحق الزيادة البعض الاخر عن غير جدارة ولا استحقاق .

فكم غنيّ كان اولى بان يكون فقيراً لكثرة لؤمه وشحه .

وكم فقير كان اجدر بان يكون غنياً لفرط كرمه وحلمه .

وكم حاكم قاده النسب او الحظ للحاكمية وهو بالحقيقة لم يخلق ليحكم الناس بل ليحرث الارض ويرعى السائمة .

وكم رجل حكيم يحرث الحقول ويسوس المواشي وهو كان جديراً بان يسوس الناس ويحكمهم لا ان يرعى البهائم ويحرث الارض .

كل ذلك مما يجعلني اعتقد بان هذه الحياة الدنيا ناقصة من كل وجوهها وما الموت سوى حكمة من الله ليزيل نقصانها .

وكما قال المسيح بانجيله « ما جئت لانقض الناموس بل لاتمم » هكذا اعتقد بأن الله لم يأمر بالموت لينقض الحياة بل ليتممها ويزيدها رقياً وكمالاً .

الرسالة التاسعة والثلاثون

بيروت في ٢ شباط سنة ١٩٣١

من حوادث الحياة

انتصار الحق على الباطل

يا اخي :

نهار البارحة شهدت مشاجرة عنيفة وقعت بين رجلين على بعض دريهمات .

كلٌ قام يبرهن ان له مالاً بذمة رفيقه – كلٌ قال ان الحق بجانبه – كلٌ اقسم بدينه وبشرفه وبالله العظيم ان ما ينطق به هو الصواب .

فوقفت برهة اتأمل بهما حائراً ذاهلاً ثم أخذا يتبادلان الكلام الجارح ثم انقض كلٌ منهما على الاخر يتضاربان ويتلاكمان .

فعندئذ دخلت لاحول بينهما ثم سألتهما عن القيمة التي يتشاجران عليها فأجابا انها تبلغ مائتي غرش سوري وقد ادّعى

كلٌ منهما بهذا المبلغ على قرينه و كلٌ منهما اقسم بشرفه ودينه انه يقول الصدق ولا يعرف الكذب ولا البهتان .

فعندئذ أخذت كلاً منهما على حدة ونقدته القيمة التي يطلبها . ثم اجتمعت بهما معاً وخاطبتهما قائلا : انتما تعتقدان بان المال هو غاية الحياة ولهذا السبب تسعيان كل السعي وراء تحصيله حقاً كان ام بطلا .

ولكن ألا تعلمان ان للحياة غاية نبيلة هي اسمى من المال ان اسمى غايات الحياة هي معرفة الحق والاعتصام بحبله والان فكما نلتما مني مناكما حلالاً فاني ارجو منكما ان تقولا الحق لينال الحق منكما مناه .

فعندئذ قام على الاثر أحدهما وقال لقد أثر بي كلامك ايها الرجل ولهذا السبب اعترف لك بصراحة ان الحق في هذه القضية كان بجانب رفيقي لا بجانبي لان ادعائي عليه كان باطلاً

فشكرته على إقراره ثم رجوت منه ان يكون دائماً بجانب الحق لان صاحب الحق ولو كان فقيراً فالحق يسعده ويغنيه وصاحب البطل ولو كان غنياً فالبطل يفقره ويضنيه . فوعدني خيراً ثم انصرف ورفيقه شاكرين .

يا أخي : كلما تأملت في هذه الحادثة التي جرت امامي بين

رجلين اميين ينتميان الى الطبقة الجاهلة من طبقات الناس وكيف اختلفا ثم انتهى اختلافهما بتضحية بسيطة كانت سبب اظهار الحق والاقرار به مما جعلني ان اغير اعتقادي في عقلية الناس وطبيعتهم الفاسدة وان اؤمن بان قابليتهم لاكتساب الخير والاعتصام بحبل الحق عظيمة جداً .

ولهذا السبب اصبحت متفائلاً في مستقبل الناس على الارض ومعتقداً كل الاعتقاد بأنهم سيزدادون مع الزمن رقياً في ادبياتهم واخلاقهم كما يزدادون تقدماً في علومهم وصناعاتهم .

فكما تصفى المياه وتزداد نقاء في مواظبة تكريرها هكذا يترقى الناس وتصفى ضمائرهم في تعاقبهم جيلاً اثر جيل .



الرسالة الاربعون

بيروت في ١٥ شباط سنة ١٩٣١

من حوادث الحياة

كيف افهم الدين و كيف يفهمه معظم البشر

يا اخي :

اني افهم الدين واعتقد به أنه الصلة الوحيدة التي تربط الناس بخالقهم والفكرة السامية التي تزجرهم عن الاثم والمخازي وتفتح امامهم طريق الحق والفضيلة .

ليس هو باعتقادي من مستنبطات الحضارة ولا من نتاج التجارب العلمية بل هو فكرة نشأت مع الانسان حين كان همجياً يعيش في الكهوف والمغاور ولم تزل هذه الفكرة متأصلة في ادمغة الناس في عصر العلم والتمدن كما كانت في العصور الهمجية السالفة .

وستبقى فكرة الدين مرتكزةً في اذهان الناس الى الابد ولا عبرة في تحوير الاديان وتعديلها كلما اقتضى العصر او البيئة

ذلك لانه مهما سينشأ في الكون من الاديان والمذاهب ومهما تتبدل الشرائع والقوانين فان جوهر الدين واحد لا يمسّ وما جوهر الدين سوى الصراط المؤدّي الى معرفة الحق .

كانت أديان الاقدمين تحرّم القتل والكذب والاختلاس وشهادة الزور و كل ما ينـافي الحق فاندثرت تلك الاديان وقام مقامها اديان جديدة اكثر منها سمواً بتعاليمها الرائعة وشرائعها المرتكزة على الوحدة الربانية ولكنها طبعت على غرار الاديان القديمة من حيث مناصرة الحق ومعاقبة البطل .

يا اخي : ان الحق في كل العصور واحد لا يتجزأ هكذا جوهر الدين واحد ايضاً لانه الحق بعينه .

ولهذا السبب اصبحت مؤمنـاً بان كل من اعتصم بحبل الحق هو من ديني وانا من دينه .

وكل من كان حليماً صادقـاً كريماً نبيلاً محسناً يعفو عند المقدرة ويغضّ الطرف عن الاساءة غير متعصب ولا متحزب لدين ولا لأخ او نسيب او لفئة من الفئات الا للحق وحده فهو من ديني وانا من دينه .

وكل من يصوم ويصلي ويذكر الله كثيراً ويسجد في الكنـائس والجوامع والخلوات ولا يقرن الصوم بحسن النية

وطهـارة الضمير والصلاة بالعمل الطيب والمحبة الخالصة لجميع الناس على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم فهو ليس من ديني ولا انا من دينه .

لان ديني يقوم بالاعمال لا بالاقوال وبالتساهل لا بالتعصب وبالمحبة والتضحية لا بالبغضاء والعداوة .

واما معظم الناس وخصوصاً في الشرق فيفهمون الدين بانه لا يقوم الا بالتعصب الذميم وبالعداء المستحكم لكل من لا يؤمن به وبكثرة الصوم والصلوات والعبادات ولا يفتكرون بالحق الراهن الا قليلا .



الرسالة الواحدة والاربعون

بيروت في ١٧ شباط سنة ١٩٣١

من حوادث الحياة

الصوم

يا اخي :

منذ يومين ابتدأ الصوم الكبير عند النصارى ولم يزل المسلمون صائمين صوم رمضان فسألني احد الاصحاب عما اذا كنت صائماً وما رأيي في الصوم — فأجبته لست صائماً ولا فائدة صحّية لي الان من الصوم لاني لم اتعوّد الجشع في الاكل ولم اتخم مرة في حياتي .

وأما رأيي في الصوم فهو امر صحيٌ اكثر مما هو روحيّ وهو واجب ان يتبعه الناس الذين تعودوا بأن يأكلوا اكثر من حاجاتهم فترتاح معدهم من الهضم ردحاً كي تستعيد قوتها لحمل اعبائها .

واما الذين يعتقدون بأن الغنيّ اذا صام وشعر بالجوع يشعر

مع الفقراء والمعوزين فهذا امر لا اعتقد به « فضلاً عن ان الاغنياء لا يصومون الا نادراً » لان الشعور بمحبة الاحسان هو شعورٌ ادبيٌ صرف لا دخل له في البطون الملآنة اوالطاوية

فكم محسن لا يصوم ابداً وكم صائم لا يحسن ابداً .

فلم ينشرح صديقي من جوابي لانه كان يعتقد الصوم وحياً أنزل من الله على عبـاده ثم أخذ يجادلني معرباً لي عما جاء في الكتابين الطاهرين الانجيل والقرآن عن ارادة الله العليا في الصوم وعن كثرة فائدته .

وبينـا هو متحمس في كلامه اذ برجل صائم يمرّ بقربنـا وبعد ان جاهر بصومه أخذ من أجل مسألة تافهة يشتم رفيقاً له بعبـارات بذيئة سـافلة تنم على قلة أدبه ونزوعه الى الاثم والمشاحنة .

فعندئذ قلت لرفيقي : ماذا ينفع الصوم هذا الرجل أفمـا كان أولى به ان لا يصوم ابداً وان يسعى لصون لسانه كي لا يكون هكذا شتاماً للناس ثالماً لاعراضهم .

كل رجل فظ يصوم مرغمـاً لا يجديه الصوم نفعاً بل ضراً لان الصوم يحرك به حاسة الجوع وهـذه تزيد من سؤ خلقه وفظاظة طباعه .

يا اخي : لم يزل معظم البشر حتى في هذا العصر الذي يُدعى عصر العلم والتمدن يهتمون بالقشور دون اللباب .

الرسالة الثانية والاربعون

بيروت في ٢٦ شباط سنة ١٩٣١

الله

يا اخي :

منذ انتقلتَ الى الحياة الاخرى وانا اتساءل ماهي هذه الحياة الدنيا ؟ ما هو الموت ؟ ما هذا الوجود وما وراء هذه الافلاك السابحة في الفضاء ؟ ما هي القوة الازلية الخالدة التي اوجدت الكائنات ؟ او بالاحرى ما هو الله القادر على كل شيء والخالق كل شيء ؟

كيف يجب ان اعتقد بوجوده ؟ كيف اؤمن به ؟ كيف اتصوّره في ذهني واتخيّله في ضميري ؟

هل اؤمن به الهاً جباراً قاسياً يشبه جبابرة الملوك الارضيين القساة ؟ لا

هل اعتقد به انه يستهويه المدح والثناء ويرتاح الى التسبيح والتمجيد ويرغب في الزخارف الباطلة كما يرغب جميع البشر ؟ لا

هل اتصوّره الهاً مخيفاً هائلاً يجلس يوم البعث على عرشه الالهي ومن حوله الاولياء والملائكة يقدمون اليه الناس افواجاً افواجاً ليدينهم فيقفون امامه تعالى مذلولين خاشعين كما يقف العبد امام سيده ؟ لا .

هل اتخيّله تعالى بصورة انسان كما يقول الكتاب لقد خلقه الله على صورته ومثاله ؟

او اتمثله كالبرق يسطع في كل زمان وفي كل مكان ؟ لا ادري حقاً كيف يجب ان اتخيله ولا كيف احلم به ولكن كما ان النور يدل دلالة واضحة على وجود الكهرباء مع اننا لا ندري سر الكهرباء هكذا اعتقد بأن هذه الكائنات بشموسها وكواكبها ونظامها العجيب ومخلوقاتها التي لا تحصى كلها تدل دلالة صريحة على وجود الله ولو كنا لا ندري سر الله .

يا اخي : اني اعترف امام نفسك الان بان إلهي الذي اعبده

لا اعتقد به انه إله دين من الاديان ولا اله شعب خاص من الشعوب .

ان الهي هو اله حق لجميع الامم والكائنات والمخلوقات .

وفضلاً عن ذلك ان الهي غفور رحوم لا يملأ قلبي خوفاً ولا رعباً لاني لا اتخيله رباً قاسياً يحكم عليّ بعنف وشدة بل اتمثله اباً حنوناً يعطف عليّ ويعاملني بعدل ورحمة .

ولهذا السبب كلما شئت أن أتوسل اليه وأطلب منه أمراً اخاطبه كما يخاطب الابنُ اباه لا كما يخاطب العبد مولاه .

ان إلهي هو منتهى الحلم لانه منتهى القوة . ومنتهى العفو لانه منتهى الكمال .

ان الهي هو منبع الخيرات ومصدر الحياة ومبعث البركات انه مورد المحبة الدائمة والرحمة الكاملة .

هكذا يا اخي اتمثل الله خالداً بحبه كما هو خالد بربوبيته وكاملاً بصفاته وعفوه كما هو كامل بقدرته .



الرسالة الثالثة والاربعون

بيروت في ٢٦ شباط سنة ١٩٣١

رسالة الوداع

يا اخي :

لقد ودّعتني قبل وفاتك وداعاً لا يبرح ذهني مهما طالت ايام حياتي على الارض لانه كان وداعاً حساساً طافحاً بالحكمة والشعور .

ولهذا السبب دونته لك كلمةً كلمةً في احدى رسائلي اليك ليبقى محفوظاً في صفحات كتابي هذا وخالداً في اذهان كل من يقرأه ويتمعّن به .

وفضلاً عن ذلك ان عباراتك الاخيرة التي ودّعتني بها هي التي اوحت اليّ معظم ما كتبته لك من الرسائل . فانا من هذا القبيل مدين لك بها اشهد بذلك امام الله والناس .

والان هذه رسالتي الاخيرة جئت اودّعك بها لكني لا ادري ماذا اقوله لك وماذا اتحدّث اليك .

لقد تناولت القلم مراراً لاخطّ كلمة الوداع واستعصى عليّ ذلك ولهذا السبب اصبحتُ الان لا ادري هل تلعثم لساني وخبا ذهني وجف مدادي عند كتابتي هذه الرسالة ام اللغة مع وفرة مترادفاتها لم تزل عاجزة عن التعبير عن حاسة النفس وشدة انفعالها وآلامها .

يا اخي : كن على ثقة اني كلما تأملت بك وتذكرت ساعة وفاتك احسّ بألم وما بي من ألم وبخفقان قلبي وما بي من علة قلبية واشعر تارة بذهول في دماغي فيحدثني الناس ولا افهم حديثهم وطوراً يخاطبونني ولا اسمع خطابهم واحياناً احدق نظري بهم ولا اراهم مع اني صحيح الجسم ليس بي ادنى ضعف في دماغي ولا في حاستي السمع والبصر .

كل ذلك يحصل لي من جرّاء تلك الانفعالات النفسية التي تعتريني كلما فكرت بفقدك . وهي التي تهز اعصابي هزاً وتشل قواي الذهنية وتثير لواعجي القلبية . وهي التي لم اقدر حتى الان ان اكبح جماحها ولا ان اعبّر عنها .

يا اخي : لم يبق لي من امل بالتخلص من هذه الانفعالات النفسانية لقد اصبحت موقناً لا بل معتقداً بأنها سترافقني الى مقري الاخير — الى القبر الذي سيضم جثماني ـ والى التراب

الذي سأتحول اليه ـ الى ان يقضي الله فيجمع رميمك برميمي وترابك بترابي .

واما تلك النفس التي تختلج في جوانحي الان ـ هذه النفس التي كانت رفيقة نفسك في سرّائها وضرّائها وشقيقتها في خُلقها وتفكيرها .

هذه النفس التي احبتك حباً يقرب من العبادة .

هذه النفس التي بنتَ عنها وكنتَ معينها وجناحها الوحيد في هذه الحياة الدنيا .

هذه النفس التي لم تزل سجينة في حنايا هذا الجسم المتضعضع الذي هو جسمي اصبحت الان تود الانفلات منه لتطير الى عالمك وتلتقي بنفسك .

هذه النفس المنسحقة من لوعة فراقك تناجيك الان وتطلب منك اذا كان بعد هذا العالم يوجد في الملأ الاعلى عوالم عديدة ومنازل كثيرة تغشاها الانفس قبل الوصول الى الله ان تنتظرها نفسك هنيهة في عالمها الجديد ولو كان هذا الانتظار يضيرها ريثما تلتقي بها ثم تسافران معاً الى ملكوت الله وتتحدان به تعالى .

فالى اللقاء يا اخي ـ الى الله

الى روح فقيد الشباب اللبناني المأسوف عليه
طانيوس حسن نادر الشرتوني

بقلم الاستاذ وديع افندي عقل صاحب جريدة الراصد في بيروت

لولا صباك لما حزنت على صبا ... يذوي ولا ارسلت دمعي صيبا
ان المنية أذبلت بك خير من ... رباه لبنان العزيز وانجبا
ما كنت الا نفحة من أرزه ... حملت الى المكسيك عرفاً طيبا
وشرارةً من ناره طارت الى ... فلكٍ بعيدٍ فاستقرت كوكبا
ورسالةً من روضه وغديره ... نضحت عليها الطيب ازهار الربى
تليت على ابنائه فرأوا بها ... سفر النبوغ محبراً بيد الصبا
طربوا افتخاراً للشباب يزينه ... من حكمة ما قد يفوت الاشيبا
فاقتَ والتوفيق صنوُك عاملاً ... عمل الذي خبر الحياة وجربا
قد عشت كالحمل الوديع ولم تكن ... الا على بغي النوائب سلهبا
ما كان حظك عاثراً الا به ... مرك اذ قضبت ولم يحن ان تقضبا
وذهبت عن دنياك وهي تشد ذيـ ... ـل الثوب منك تريد ان لا تذهبا
عاصيتها وعففت عن لذاتها ... ومضيت تطلب في سواها مطلبا
وتركت خلفك مهجةً اخويةً ... في دار غربتها تذوب تلهبا
ما راع ريب الدهر في الدنيا اخاً ... كأخيك يوم دهى ولا ابكى ابا
هذا عليه ضاق لبنان وذا ... ك غدا يرى المكسيك سجناً مرعبا
فتلاقيا تتساقيان الصاب في ... لبنان بعدك لا سواه مشربا

اشكر من صميم الفؤاد جميع الانسباء والاصدقاء والادباء وارباب الصحف الذين شاركوني بمصابي الاليم بفقد المرحوم اخي واعتذر اليهم لعدم نشري كل المراثي التي وصلتني في هذا الكتاب لضيق نطاقه . واني اسأل الله ان لا يفجعهم بعزيز

لا روض شرتون بطيب اريجه لها ولا بيروت تحلو ملعبا
والله لولا الحلم لم يمسكها لتخذيا اليأس المفرق مركبا

حييتك يا انطون أطهر نفحة أرزية يسري بها نفس الصبا
نم واسترح في دار غربتك التي لم ترض فيها العيش الا متعبا
يا صارماً مستوحشاً في غمده صبراً فسوف تعيف ذاك المختبا
ستصيح امك يوم تنزل لحدها أهلاً وسهلاً بالحبيب ومرحبا

إلى فقيد الشباب طانيوس حسن الشرتوني

بقلم الاستاذ حليم افندي دموس

هذا الوجود شرابه كسرابهِ عند الحكيم وعذبه كعذابهِ
وبنو الحياة الى الممات فموكب طي الضريح وموكب في بابهِ
سبحانك اللهم حكمك عادل لكن عقلي حار في اسبابه
تبقي على الشيخ الضعيف وينطوي عمر الفتى والعزم ملء اهابه
ولقد شجت نفسي واذكت خاطري زفرات توفيق الاديب النابه
اودى الردى بشقيقه ونبا به وطن يحن الى لقا احبابه
نثر الشقيق على الشقيق دموعه وبكى على الريان من آدابه
ابداً يرى رسم الحبيب امامه والحزن ملء سكوته وجوابه
يملي على الصفحات ذكرى حبه ويخط بالعبرات اصدق ما به
ومداد مرقه ومدمع جفنه يتناثران على سطور كتابه

رفقاً بنفسك فالحياة قصيرة كالنجم بين طلوعه وغيابه
واعلم بأنك لست اول خائض بحر الاسى متخبط بعبابه
فالنسر يوقعه الردى من جوه والليث يصرعه الردى في غابه

زفرة على المرحوم طانيوس حسن الشرتوني

بقلم الاستاذ يوسف صالح الحلو صاحب جريدة الخواطر المكسيكية

ذهب الردى بفتى الشباب الناضر فغشى ضباب الحزن افق خواطري
وطلبت قافية الرثاء فأعولت ثكلى وفاضت بالدموع محاجري
فنثرتها من فوق رمسك زهرة من دوح عاطفتي وروض شواعري
من ذا احق بها وانت اخو الوفا وابن المروءة والذكاء النادر
أمجاهداً ود الحياة قصيرة لكنها مملوءة بمآثر

وبعد ان وصف خلال الفقيد اجملها قائلا

شيم لها لطف الشمول وعزمة تمضي اذا انصرفت مضاء الباتر
ادركت شأواً في حياتك يافعاً ومشيت رغم الدهر مشية ظافر
بسمت لك الايام وهي عوابس فاغاظهُ منك اختيال القاهر
فانسل ينفذ في فؤادك سهمه يا ويح دهرك من حسود غادر

الى ان قال مشيرا الى شقيق الفقيد

خلفته وهو الرشيد مضعضعاً ببلابل الشكوى وذهن الحائر
يطوي الحياة على قتاد مضاجع تسقيه بهجتها كؤوس مرائر
ماذا يجيب غداً اذا شيخ الحمى ناداه ، يا توفيق ! اين مسامري ؟
بل اين شطر القلب اين حبيبه اين الذي رصدت سناه نواظري ؟
ارجع الى المكسيك كل كنوزها واردد اليَّ فتاي دون جواهر

ثم قال في الختام

بعض المصائب في الانام وجدتها فوق العزاء وفوق صبر الصابر
فاذا انصرفت الى الدعاء فانني لله الجأ وهو اكرم غافر
يسقي ضريحك ديمة من رحمة ممزوجة بمدامع من شاعر

عواطف ودموع

في رثاء المرحوم طانيوس حسن نادر الشرتوني

بقلم الاستاذ محبوب الخوري نادر الشرتوني صاحب جريدة الرفيق في عاصمة المكسيك

على بـدر الشبيبة يوم غابا   سلام لو يردّ لنـا جوابا

وقلب لم يذب يومـاً لرزء   تفطر يـوم مصرعه وذابا

نصاب كما يصاب الناس لكن   ترانا اليوم اعظمهم مصـابا

لقد نزعت يـد الارزاء منا   حشاشتنا لتودعهـا الترابا

اجل فقد الشباب الغض بدراً   يزين بنور معناه الشبـابا

تجرد يملأ الايـام عزماً   ويدأب في دقائقها طـلابا

فعاش الطيش وانتبذ الملاهي   وخلى القشر واتخذ اللبـابا

وصـان شبابه من كل عيب   فكان من الجريمة ان يعـابا

وكان الحلم فيه حلم كهل   اذا ما خاض مسألةً اصـابا

اباه الشيخ : من بعد المرامي   أشاطرك المضاضة والعـذابا

تطل على المشـارف يوم تدري   تخال رواية النـاعي كذابا

تحلق والبواخـر مقبـلات   وتسأل حين لا تجـد الجوابا

فترجع موقناً والظهر حـانٍ   ودمع العـين يطرد انسكابا

فلو أني استطعت بسطت كني   واقفلت البواخر والعبـابا

اجـل ياعم خطبك مستطير   فصبراً في حياتـك واحتسابا

اذا ذكروا فتاك وكان شبـلا   فعلِّ الرأس والتحف العجـابا

اخاه : وانت من عهد التصابي   اخي حباً وعطفاً واصطحابا

خطبك بالشقيق الفذ خطبي   وخطب الاقربين غداة نابا

بكت عيني بأدمعها لو اني   قدرت جعلت ادُمعها السحابا

عزاءك فالحياة وان تمادت ... هي الاحلام مسرعة ذهابا
ولو ان المنية ذات عقل ... رشقنا الذم او سقنا العتابا
الا سرّ الحياة وان لججنا ... عليه لا نشقّ له حجابا
رأيت المرء يقتحم الاحاجي ... يعالج من مغالقها الصعابا
فليس يخيب ان يفكر بأمر ... وان يفكر بلغز الغيب خابا
اذا جعلوا من الانكار باباً ... لمعتسف جعلت الله بابا
فلست من الالى انتقضوا عليه ... وقالوا لا خلود ولا ثوابا
وداعاً ايها القمر المسجى ... خبوت وكنت اثقبهم شهابا
فلو درسوا حياتك وهي صُغرى ... لصاغوا من محاسنها كتابا

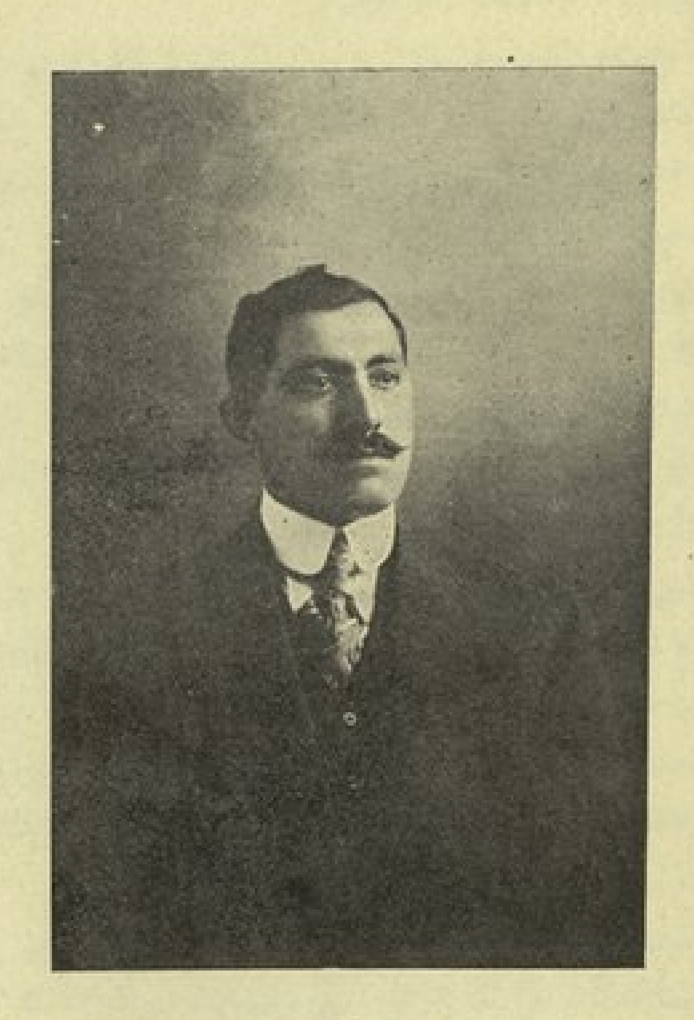
دمعة حرّى

على شاعر العرب في المكسيك المأسوف عليه الاستاذ محبوب الخوري الشرتوني صاحب جريدة الرفيق الذي انتقل الى رحمة الله في مكسيكو نهار السبت الواقع في ٢٧ حزيران سنة ١٩٣١

يا اخي محبوب

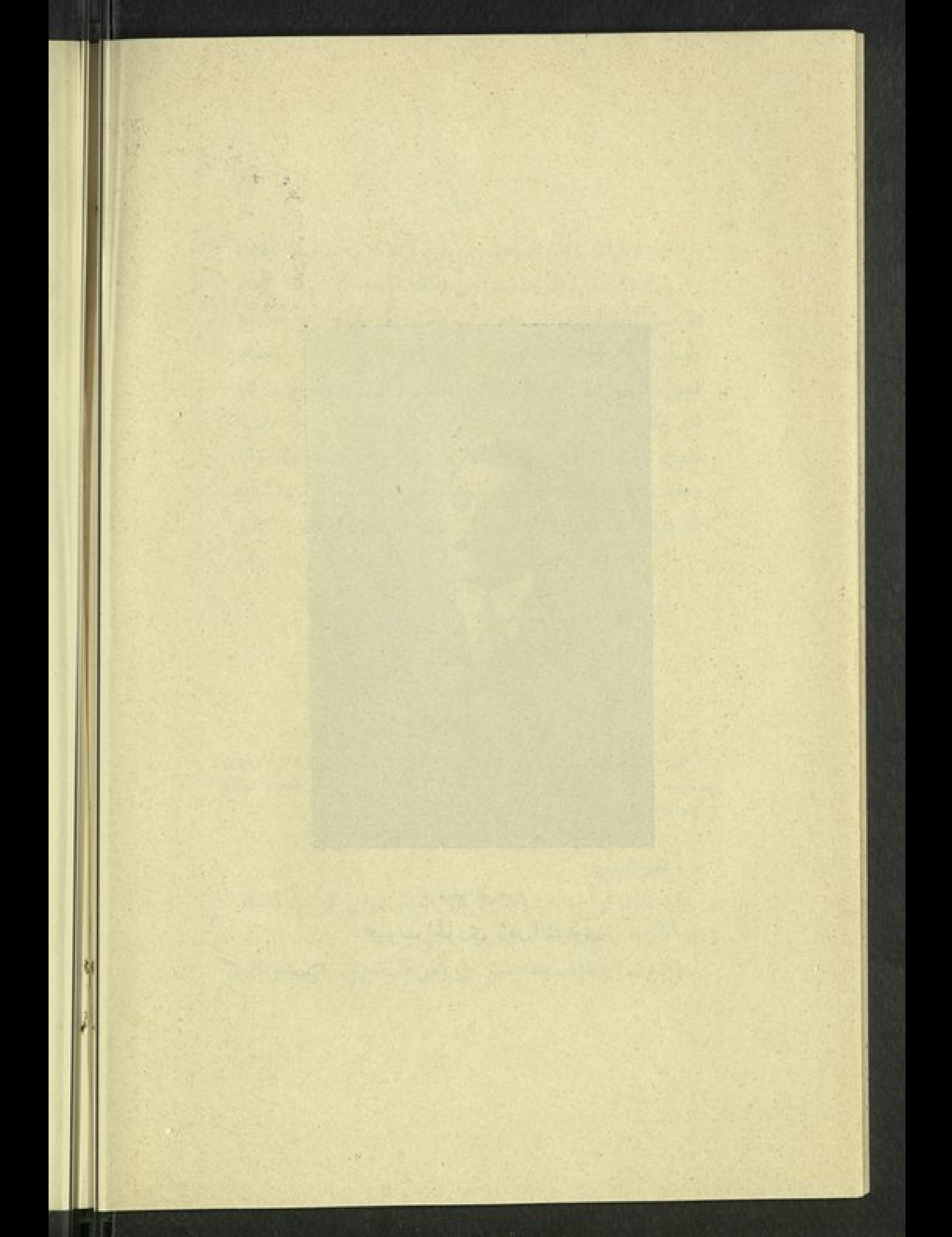
يا استاذي في الحداثة ويا صديقي في الشباب ورفيقي في ديار الغربة .
يا اعز الاقرباء وانبغ الانسباء

يا محبوب ا لم تنشف بعد دمعتي على اخي طانيوس حتى فجعني الموت



رسم المرحوم

محبوب الخوري نادر الشرتوني



بك . ولم تلتئم بعد جراحات نفسي الدامية حتى نكئت ثانية بسهام خطبك .

يا محبوب يا شاعر الالهام والعواطف !

لقد اخترمتك المنون ولم تعطف على شبابك مع انك كنت مشهوراً بجميل عطفك وحنانك ولم ترحم ايضاً عقيلتك الثكلى ولا طفلتيك الصغيرتين اللتين تيتمتا قبل ان ترسخ ملامحك الجميلة في ذهنيهما مع انك كنت في حياتك ترحم المظلومين وتنصر البائسين .

يا محبوب ! يحار عقلي كلما تأملت في هذه الحياة وفي هذه الطبيعة . تراني اتساءل : لماذا يحيا الباغي طويلاً ويعيش الطاهر الذيل قليلاً ؟ لماذا تمنح الطبيعة القوة للمستبدين والسلطة للظالمين لماذا لماذا ؟

ولكن لسوء الحظ لا ادري لماذا ولا احد يدري حتى الان سر هذه الحياة ولا كنه هذه الطبيعة .

يا محبوب ! يا رافع لواء الادب العربي في المكسيك ! انا ما عشت لا انسى بديع منظومك ومنثورك — ولا انسى ابداً تلك الوقفات الخالدة التي كنت تقفها على منبر الخطابة في مكسيكو

ان معظم ابناء سوريا ولبنان في تلك الجمهورية النائية يرددون باعجاب اشعارك الخالدة ويتغنون بها في منتدياتهم ومجتمعاتهم ويفاخرون بادبك الجم كما يتفاخرون بشمائلك الغراء ومبادئك القويمة

يا محبوب ! لم تكن فقط بدراً لامعاً في افق الادب والشعر بل كنت هكذا ايضاً لامعاً في حياتك العائلية وفي صفاتك النبيلة . لانك كنت زوجاً اميناً واباً حنوناً وشهماً ابياً وصديقاً وفياً

يا محبوب يا صاحب « الرفيق » ! على من تركت « رفيقك » ؟ هذا الذي كان يحصد من حقل ذهنك ويرتوي من ماء يراعك ثم يغذي الناس من نتاج

ادبك ويسقيهم من كوثر نبوغك

والان بعد ان يبس حقلك وجف معينك فمن اين يجمع الرفيق غذاء وماء ليطعم الجياع ويسقي العطاش على مائدة الادب والمعارف

وانت وحدك كنت معينه وغذاءه وروحه وهل يحيا الرفيق بعدك بلا معين ولا غذاء ولا روح ؟ لا

فكما كان «الرفيق» بالامس حياً بك اصبح اليوم مائتاً بموتك

رحمك الله يا محبوب ورحم «رفيقك» الذي كان نجماً ساطعاً في عالم الصحف والادب

فما كان «الرفيق» الا انت وما كنت انت الا «رفيقك»

يا محبوب ! ليست شرتون وحدها اليوم ترثيك وتبكيك بل يرثيك ويبكيك كل ناطق بالضاد قرأ نفثاتك الرائعة وخبر ادبك الجم

ان ادباء لبنان كلهم صعقوا لفقدك واكبروا خسارة الصحافة والادب بك واما انا فلا تسل عن شدة حزني عليك فهو يوازي حزني على اخي الراقد بجوارك في لحده

فسلام على ضريحيكما وعلى المكسيك التي تحضن ثراكما ورحمات الله وبركاته عليكما

في ٣٠ حزيران سنة ٩٣١ بقلم

توفيق حسن نادر الشرتوني



فهرس الكتاب

اصلاح خطأ

خطأ	الصواب	سطر	صفحة
الحادية عشر	الحادية عشرة	٧	٦
بدابلا	بوابلا	١٠	١١
يخال	يخيل	١٢	٢٨
يخال	يخيل	١٦	٣٥
آوانها	اوانها	١١	٤٦
الآوان	الاوان	٨	٤٧
يا وطي	يا وطني	٣	٥٤
الاباء	الآباء	٣	٥٤
ابائك	آبائك	١٧	٥٤
جزوء	جزوء	٤	٦٠
قط	ابداً	٣	٦٣
يترآى	يتراءى	١٠	٦٤
الاباء	الآباء	١٢	٧٣
الفضا	الفضا	١٠	٨٠

ويوجد اغلاط مطبعية غيرها لا تخفى على القارى.

تم وضع هذا الكتاب في ٢٦ شباط سنة ١٩٣١ وطبع في مطبعة المعرض الاغر في اول تموز سنة ١٩٣١

923.8
S532sA
c.1